وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

اكتمال القمر

عماد الدين إبراهيم

قصص

2023

اكتمال القمر

عماد الدين إبراهيم

قصص

2023

اكتمال القمر

«ليلة هوا صحيح»

تناهى إلى سمعي صوت أم كلثوم وهي تغني «هوّا صحيح الهوى غلّاب». الوقت ليلٌ في أواخر شهر كانون الثاني، القمرُ مكتملٌ تماماً، غيوم بيضاء تتهادى في صفحة السماء الفضية، لكنَّ البرودة شديدة مثلُ هذا الطقس يتبئ عادةً بحدوث الصقيع، وتجمُّد المياه. نسماتٌ باردة قادمة من الجبال المكلّلة بالثلج، تهزّ غصونَ الأشجار. أنا في وحدتي أتأمّل سكونَ الليل من نافذتي بعد أن قُطعت الكهرباء وعمّ الظلام، غابت كلُ مظاهر الحياة الحديثة، التلفزيوناتُ انطفأت، الموبايلاتُ ووسائلُ تواصلِها الاجتماعي الزائفُ توقفت، عدتُ إلى صديقي المذياع أقلّبُ في موجات أثيره الذي حمل إليَّ صوتَ أم كلثوم ليُعيدَني عشراتِ السنين إلى الوراء.

ISBN 978-9933-0-1531-2

www.syrbook.gov.sy
syrbook.dg@gmail.com
هاتف: 3329815 - 3329816

4100 ليرة سورية أو مايعادلها

مطابع الهيئة العامةالسورية للكتاب

2023

عماد الدين إبراهيم

اكتمال القمر

مجموعة قصصية

الإهداء

إلى الأقمارِ التي لم تَكتمِلْ بعدُ

حتى لا يأخذَها الأفول

عماد الدين

اكتمال القمر - ليلة " هوَّا صحيح "

تناهى إلى سمعي صوت أم كلثوم و هي تغني " هوَّا صحيح الهوى غلَّاب " الوقتُ ليلٌ في أواخر شهر كانون الثاني ، القمرُ مكتملٌ تماماً ، غيوم بيضاء تتهادى في صفحة السماء الفضية ، لكنَّ البرودة شديدة ، عادةً مثلُ هذا الطقس ينبئ بحدوث الصقيع و تجمُّد المياه ، نسماتٌ باردة قادمة من الجبال المكللة بالثلج تهزُّ غصونَ الأشجار ، أنا في وحدتي أتأمَّل سكونَ الليل من نافذتي بعد أن قُطعت الكهرباء و عمَّ الظلام ، غابت كلُّ مظاهرِ الحياةِ الحديثة ، التلفزيوناتُ انطفأت ، الموبايلاتُ و وسائلُ تواصلِها الاجتماعي الزائفِ توقفت ، عدتُ إلى صديقي المذياع أقلِّبُ في موجات أثيره الذي حمل إليَّ صوتَ أم كلثوم ليُعيدَني عشراتِ السنين إلى الوراء .

" هوَّا صحيح الهوى غلَّاب ... ما اعْرَفشِي أنا .. و الهجر قالوا مَرَار و عذاب و اليوم بِسَنَهْ " يالَلكلامِ المؤثِّر ، و اللحنِ الذي يسافر بالروح إلى أمداء الكون ، و الصوت الذي يتغلغل في كلِّ الكائنات من حولي ، يتسلَّقُ الجدرانَ ، يطرقُ النوافذَ ، يتسلَّلُ إلى كلِّ المنازل ، ينبضُ في قلوبِ ساكنيها ، يحاولُ إعادتَهم سنواتٍ و عقوداً إلى الوراء ، هكذا شعرتُ .. أو توهَّمتُ .. أو تخيَّلتُ .

عادت بي الذاكرةُ إلى الفترة التي سمعتُ بها هذه الأغنيةَ لأولِّ مرة ، كان عمري حوالي أربعة عشر عاماً ، كنت أتابع الإذاعات و أهتمُّ كثيراً بما تَبُثُّ من برامج و أغانٍ ، لقد حفظتُ الأغنية و ترنَّمتُ بها كثيراً ، ردَّدتها بيني و بين نفسي ، لا بل كنتُ أحياناً أهيمُ على وجهي في الحقولِ و الوديانِ المجاورةِ لمنزلِنا و أنا أغنِّيها ، أخاطبُ حبيبةً مجهولةً لا توجدُ إلا في خيالي الرومانسيِّ الحالم ، أتساءلُ الآنَ : تُرى هل كان لهذه الأغنيةِ و غيرِها من أغاني الحب دورٌ في رسمِ عواطفِنا و نظرتِنا للمرأةِ و الحبِّ ؟ للفراقِ و الألمِ ؟ للبكاءِ و النَّحيب ؟ نحن جيلَ الزمنِ البطيءِ الغارقِ في الماضي و ذكرياتِه ؟!

" يا قلبي آه .. الحب و راه أشجان و ألم " أم كلثوم تتأوَّه بصوتِها ، و أنا أستحضر في ذاكرتي حالاتِ الحب التي مررتُ بها خلالَ حياتي ، أستعيدُها بكلِّ تفاصيلِها ، أتذكَّرُ أوَّلَ حبٍّ شعرتُ به، كان عمري حوالي عشر سنوات ، و الحبيبةُ أكبرُ منِّي بعامين ، كنتُ أختلس النظرَ إليها يدفعني شعورُ بالانجذاب نحوها ، و لكن بصمت ، نظراتٌ فقط ، و لم نتبادل أيَّ حديثٍ مطلقاً ، و أغلبُ الظنِّ أنها لم تشعُر أبداً بعواطفي تجاهَها ، مرَّتْ السنواتُ ، و انطوتْ صفحةُ ذاكَ الشُّعورِ الوهميِّ بالحب .

" نظرة و كنت أحسِبها سلام و تمرّ قوام ، أتاري فيها وعود و عهود و صدود و آلام " نعم كان الحبُّ من النظرةِ الأولى ، هكذا ! أمَّا لماذا ؟ فلا أعرف ، أتساءلُ

الآنَ إذا ما كان ذلك الشعورُ حباً، أم أنه وهمٌ بالحبِّ و بالحاجةِ إلى الحبِّ ، يقولون : أنتَ لا تُحبُّ، و لكنك تُحبُّ أن تعيشَ حالةَ الحب .

مرَّت السنواتُ و تكرَّرت حالاتُ الحبِّ و الانجذابِ تجاه المرأة، تحضرني الآن آخرُ حالةِ حبٍّ عشتُها ، كانت عجيبةً وغريبةً لا تُصدَّقُ ، بعدَ مُضِيِّ أكثرَ من خمسةَ عشرَ عاماً عليها، أستغربُ كيف وقعتُ في ذاك الحبِّ العاصفِ و المجنون ، كان عمري اثنتين و أربعين سنةً ، أحببتُ امرأةً التقيتُها لمدةِ ساعةٍ فقط ، ساعةٌ واحدةٌ كانت كافيةً لهزِّ كِياني و عاطفتي و جنوني ، التقينا في حفلِ افتتاحِ مؤتمرٍ عالميٍّ سافرتُ للمشاركة فيه ، هي من بلد و أنا من بلد ، و لكنَّ شرارةَ الحبِّ اقتحمتْ كلَّ الحواجزِ و جعلَتْها هباءً ، بقينا نتواصلُ شهوراً ، نتبادلُ المشاعرَ عن بعد ، نتبادلُ الألمَ و الشكوى ، و حين انجلَتِ الأمور واضحةً ، و باتَ السفرُ إليها مُحالاً ، خبتْ جذوةُ الحبِّ و نارُه ، و بقيَ التواصلُ بيننا كأصدقاء أو كمحبين قدامى .

أم كلثوم تترنَّمُ بكلامِ الأغنية ، تعيدُهُ و تُردِّدُهُ ، تتأوَّه و تتشكَّى من الحبِّ و الألم ، الآهاتُ تتصعَّدُ من فؤادِها ، و أنا أعيشُ حالةَ اختطافٍ روحانيٍّ ، أنا الآنَ قلبٌ خالٍ، قلبٌ ميتٌ، من مفارقاتِ الحياةِ الكثيرةِ أنَّ دروبَها و مسالكَها لا تأتي كما نشتهي ، هكذا هي الحياةُ " ابنةُ الإبرةِ " كما وصفَها الروائيُّ حنا مينه مِراراً في رواياتِهِ .

" أندم و أتوب و عنِ المكتوب ما يفيدشي ندم .. يا قلبي آه " ما فائدةُ الندم ؟ أشعرُ الآنَ أنَّ عُمُري مرَّ هكذا دونَ أن أحياه ، و أتساءلُ بمرارةٍ كيف مرَّتْ سنواتُه ؟ كيف لم أشعُرْ بها ؟ كيف هربَ العمرُ دونَ أن نشعُرَ به ، يبدو هذا الشعورُ مشترَكاً عند جميعِ الناس .

تتابعُ أمُّ كلثوم تفجُّعَها و آهاتِها ، و أرحلُ أنا في ذكرياتِ الماضي و قد أسكرتني الأغنية ، أحيَتْ عواطفي ، و أماتت إحساسَ الزمنِ عندي ، تُرى كيف كان شعورُ بيرم التونسي حين كتبَ هذه الكلمات ؟ و أيُّ لهبٍ إلهيٍّ قدسيٍّ انتابَ زكريا أحمد حين وضعَ لحنَها ؟ هذا اللحنُ القاتلُ لكلِّ مشاعرِ الحقدِ و الكراهية ، الذي يجعلُ الإنسانَ ملاكاً نقياً مطهَّراً من كلِّ دنسٍ ، أيُّ عشقٍ صوفيٍّ نبعَ منه هذا الكلامُ و هذا اللحنُ ؟ أيُّ نهايةٍ ختمَ بها الشاعرُ و الملحنُ حياتَيهما ؟ فقد ماتَ بيرم يومَ الخامس من كانون الثاني عام 1961 ، بعد خمسةٍ و ثلاثين يوماً من غنائِها لأوَّلِ مرةٍ في الأوَّلِ من كانونِ الأول عامَ 1960 ، و لم يَمُرَّ أربعون يوماً على رحيلِهِ حتَّى لَحِقَ به زكريا في الرابعَ عَشَرَ من شباط في العامِ نفسِهِ ، و كأنَّ هذه الأغنيةَ استنفدَتْ منهما طاقتَهما على مواصلةِ الحياة .

كانتْ هذه الخواطرُ تغمرني ، تحثُّني على محاولةِ استعادةِ الزمن، و لكنْ .. هيهاتِ .. هيهاتِ . شعرتُ بحزنِ العالمِ يملأ قلبي ، و بدمعتين معلَّقتين على جفنيَّ ، فأنا لستُ إلهاً كي أُرجِعَ الزمن ، أنا كائنٌ بشريٌّ ضعيفٌ يردِّد بينَه و بينَ نفسِهِ :

" هوَّا صحيح الهوا غلَّاب ... ما اعرفْشِي أنا " .

الأمـانـــــة

وقفتُ على التلة الجرداء متعباً و منهكاً ، ألقيتُ نظرة على بيوت القرية المتناثرة في السفح ، العراء يتمدد في كل الجهات و يحيط بكل شيء ، أشجار قليلة و نادرة تمد أغصانها العارية في السماء، تنتصب بين البيوت الطينية البائسة و الفقيرة التي أنهكتها الشمس و الفقر و الغبار ، جلستُ تحت ظلِّ شجرة وحيدة عجفاء بثيابي المعفَّرة بالغبار و العرق ، فقد بذلتُ جهوداً كبيرة و تعبت كثيراً ، قطعتُ سهولاً و جبالاً و وديااناً سيراً على الأقدام حتى وصلت إلى هنا ، خرجت من قريتي قبل يومين قاصداً هذه القرية لهدفٍ محدَّدٍ ، سأقضيه و أعود ، أرخيت جسدي على الأرض و قلتُ : سأستريح قليلاً قبل أن أواصل سيري.

نسمات حارة تلفح وجهي الذي لوحته الشمس ، غبار خانق تحمله الرياح و يزداد كثافةً كلما اشتدت ، وضعت يدَيَّ تحت رأسي ، شبَّكتُ أصابعي، و أخذت أتأمل القرية البائسة ، بين الحين و الآخر أرى بعض الأشخاص يخرجون من بيوتهم يتحركون كالأشباح ثم يختفون ، بعض الحيوانات تتناهي إلى سمعي أصواتها و كأنها تستغيث و تندب حالها في هذه المنطقة القاحلة ، فكرت : ترى كيف يعيش أهل هذه القرية ؟ من أين يأتون بطعامهم و الأرضُ حولَهم جافةٌ و قاحلة ؟ تراب مصهور بفعل حرارة الشمس ، لا بد أن هناك نبعَ ماءٍ أو بئراً حفروها لاستخراج الماء منها و إلا لماتوا عطشاً ، شتان ما بين قريتي و هذه القرية ، عندنا ماء كثير و جبال مكسوة بالأشجار و النباتات الطبيعية، و هي مراعٍ للحيوانات التي نربيها ، آوووه .... تُعتبر قريتي رغم فقرها جنةً إذا ما قيست بهذه القرية المنسية هنا في هذه البادية العارية .

تذكرت السبب الذي دفعني للمجيء إلى هنا ، و سألت نفسي: تُرى كيف تعرَّف أبي إلى مختار هذه القرية ؟ متى و أين التقيا ؟ أي ظروف دفعته للمجيء إلى هذه المنطقة البعيدة عنا و النائية ؟ و ما هي الأمانة التي وضعها عنده حتى طلب مني أن أحضرها ؟ و لماذا اختار أن يضعها هنا في هذه القرية بالذات ؟ تساؤلاتٌ كثيرة كانت تضجُّ في رأسي ، و قد اقترب وقتُ الإجابةِ عنها و الخلاصِ منها ، أرخيتُ جسمي على الأرض، تمدَّدتُ بطولي حتى شعرتُ بشيءٍ من برودة الظلِّ و التراب يتسرب إليَّ ، و غفوت .

*****

حين بلغت السادسة عشرة من عمري انتبهت إلى أن هناك حديثاً يدور بين أمي و أبي يقطعانه حينما أحضر ، لم أعرف ما هو و لم أشغل نفسي كثيراً بمعرفته ، ذات يوم و عند المساء قال أبي بحضور أمي :

ـ اسمع يا بني الآن أصبح عمرك ستة عشر عاماً أي أنك أصبحت شاباً ، لا بل صرت رجلاً ، و ليكمل الرجل رجولته و دينه لا بد من خطوة يقوم بها ، و ها قد حان الوقت للقيام بتلك الخطوة ، و للوفاء بذاك العهد القديم ، لذلك اسمعني جيداً و نفِّذ ما أطلبه منك حرفياً ، و غداً صباحاً تستعين بالله و تتوكل عليه و تنطلق ، سأشرح لك كل ما تقوم به في طريقك و بمَن تلتقي و أين تبيت و القرى التي ستمرُّ بها ، و إن شاء الله بعد غدٍ بين الظهيرة و المغرب تصل إلى مبتغاك ، و هناك تنجز ما سنتفق عليه ثم تعود على الطريق نفسه ، حضِّر نفسك و تهيّأ ، أمك ستحضِّر لك لوازم السفر .

فعلاً في الصباح الباكر انطلقت، و اتخذت الطريق الذي رسمه لي والدي ، مررت بالقرى التي سمَّاها لي ، قصدت المنازل التي أوصاني بالنزول عند أصحابها ، حين كنت أصل إلى كل قرية يستقبلني الشخص المذكور بكل حفاوة و ترحاب رغم الفقر و الفاقة التي يعيش فيها ، و يُحمِّلني زاداً يُعينني على متابعة سيري ، كنت أتساءل كيف كوَّن أبي هذه الصداقات ؟ متى تعرَّف إلى أولئك الرجال ؟ لا أذكر أنَّ واحداً منهم زارنا في قريتنا ، فمتى تمكَّن من بناء هذه الصداقات المتينة و التي تظهر قوتها و متانتها في مدى الترحاب و كرم الضيافة و حرارة السؤال ؟ أسئلة كثيرة كانت تدور في رأسي و لا أحد يمكنه الإجابة عنها إلا أبي ، و حين أعود سأسأله و أستوضح منه ، ها أنا وصلت كما توقع والدي ، الوقت الآن عصراً و أنا أغطُّ في غفوة لذيذة بعد تعبٍ طويل .

*****

انتفضتُ مستيقظاً و أنا أكاد اختنق ، حرقة تلسع عينيَّ ، فتحتهما بصعوبة ، الظلام يلفُّ كلَّ شيء ، عاصفة غبارية تملأ الفضاء ، لم أعد أدري هل الوقت ليلاً أم نهاراً ، الغبار يغطي وجهي و يملأ أنفي و فمي و حلقي ، نظري يمتد أمامي متراً أو مترين بالكاد ، بحثت عن خرقةٍ، بللتها بقليل من الماء الباقي معي ، مسحت وجهي و غطيت بها فمي و أنفي اتقاءً من الغبار الخانق ، احترتُ ماذا أفعل ، عليَّ أن أكمل سيري و لكن لم أعد أعرف بدقة مكان القرية ، خمَّنتُ اتجاهها و بدأت السير ، حسب توقعاتي قبل العاصفة المسافة لا تأخذ أكثر من ربع ساعة أو نصف ساعة بالحدِّ الأقصى ، مشيت و الريح العاصفة تلقي بي هنا و هناك و أنا أتعثر و أقوم ، الأملُ بوصولي إلى القرية حتى ألوذَ بأي بيتٍ يقيني من الريح و الغبار يقوّي

عزيمتي ، مضى زمنٌ لا أدري مقداره .. ربع ساعة ... نصف ساعة .. ساعة .. و أنا أشقُّ عبابَ هذه العاصفة العاتية التي تطيح بي يمنة و يسرة، و تهوي بي على الأرض حتى خارت قواي ، و بدأ اليأس و القنوط يتسلل إلى نفسي ، لقد أضعت الاتجاهات ، و ما معي من ماءٍ و زادٍ لا يكفيني إلا لساعات قليلة ، و العاصفة لا أعرف متى تهدأ و تسكن ، لم أعد أعرف مكاني ، هل أنا قريب من القرية بعدَ مسيري في العاصفة أم ابتعدتُ عنها ؟ هل أبقى مكاني ريثما تنتهي العاصفة أم أتابع سيري و تخبُّطي غير المجدي ؟ ظلام الليل يغطي كلَّ شيء ، العاصفة تشتدُّ عصفاً ، الغبار يملأ فمي و أنفي و عيني ، أكاد أختنق ، عيناي تحترقان من الغبار ، صداع يجتاح رأسي ، بدأت أفقد توازني ، لم أعد قادراً على الوقوف ، تداعيتُ و سقطتُ في غيبوبةٍ لا قرارَ لها .

*****

وقفت على التلة الجرداء متعباً و منهكاً ، ألقيت نظرة على بيوت القرية المتناثرة ، بساتين الكرمة تحيط بالقرية من كل الجهات بمساحات صغيرة ، بعدها تمتدُّ الأرض القاحلة، العراء يتمدد في كل الجهات و يحيط بكل شيء ، بعض أشجار التين المورقة تنتصب بين البيوت الطينية البائسة و الفقيرة التي أنهكتها الشمس و الفقر و الغبار ، و أشجار أخرى عارية تمد أغصانها نحو السماء ، جلست تحت ظلِّ بعض الشجيرات ريثما يقوم السائق باستبدال عجلة السيارة التي انفجرت بالعجلة الاحتياط ، قال لي إنه و خلال عشر دقائق سيتم الأمر ، لأن عدة التصليح معه في صندوق السيارة استعداداً لمثل هذه الحالات الطارئة .

جئنا من مركز المحافظة إلى هذه القرية لتسليم كتاب رسمي إلى المختار ، الكتاب لا أعلم فحواه ، و لكنْ من خلال الاهتمام به من قبل مديري جعلني أخمِّن أن فيه معلوماتٍ هامةً يجب أن تصل إلى مختار القرية بالسرعة القصوى ، انطلقنا قبل ساعة و نصف من الآن ، الطريق وعرة و لا يمكن للسيارة أن تسرع في سيرها ، كانت تتقافز كهرٍّ عجوز على الطريق المليء بالحفر و المطبات ، أو تزحف كسلحفاة متعبة ، يبدو أن تعبيد الطريق تمَّ منذ سنوات بعيدة و لم يتم تجديد طبقة الإسفلت التي بددتها الأمطار و السيول فتكشَّف التراب و الحصى و ظهرت الحفر .

عندما كلفني مديري بإيصال هذا البريد إلى هذه القرية تأففت و امتعضت و انزعجت ، حاولت التنصُّلَ من المهمة حتى يتم تكليفُ غيري بها ، و لكنْ عبثاً شعرت بالإزعاج و عدم الرغبة ، ضاق صدري اجتاح الغمُّ قلبي لا أدري لماذا ، أنا أعمل كساعي بريدٍ في هذه المدينة منذ عشرين عاماً ، و المناطق التي أكلف بإيصال البريد إليها هي الجزء الغربي من المدينة مع ريفها الغربي ، و قد حفظت

كل الطرق و الدروب و أسماء الأحياء و القرى ، حتى أسماء الأشخاص ، كل أهل المنطقة باتوا يعرفونني و يتعاملون معي كصديق لهم ، بل كفردٍ منهم ، و الرسائل التي أحملها إليهم في معظمها تجلب السعادة إلى قلوبهم ، و يظهر ذلك على وجوهم ، حتى في يوم العطلة أشتاق إليهم ، أزور بعضهم في المناسبات العائلية كالزواج أو الولادة ، كما أقوم بواجب العزاء عند وفاة أحدهم ، بعضهم يزورني في بيتي المتواضع في المدينة حين يقصدها لحاجة ما ، يحمل معه بعض الثمار و الفاكهة في مواسمها ، أو اللبن و الجبنة و غيرها من منتوجات القرية ، أنا أيضاً لا أتوانى عن مساعدتهم في المعاملات التي يحتاجون إليها من المكاتب و الدوائر الرسمية ، مستعيناً بمعارفي و علاقاتي مع الكثير من الموظفين ، لذلك حين أحمل البريد إليهم أشعر بالسعادة و أمضي إليهم بكل حماسة و اندفاع و حب ، أما الآن في هذه المهمة فأنا متكدِّر و منزعج ، و لم تفلح محاولاتي للاعتذار و تكليف غيري ، زميلي المكلف ببريد هذه المنطقة أخذ إجازة مرضية مدتُها أسبوع ، و يبدو هذا البريد عاجلاً و لا بدَّ من إيصاله ، لذلك ركبنا السيارة أنا و السائق و انطلقنا إلى هذه القرية النائية ، و ها نحن الاثنان نلعن الساعة التي جئنا فيها إلى هنا ، و لم يكن ينقصنا إلا انفجار عجلة السيارة بسبب سوء الطريق و وعورته حتى يكتمل نحسُنا و حظُّنا البائس .

استلقيتُ تحت ظل الشجرة ريثما ينجز السائق استبدال العجلة ، سألته إن كان يحتاج لأيِّ مساعدةٍ مني ، أكد لي أنه لوحده سيبدل العجلة و لا يحتاج لأكثر من عشر دقائق أو ربع ساعة كحدٍّ أقصى، نحن على مشارف القرية ، عشر دقائق و نصل إليها ، ظلُّ الشجرة و النسماتُ المنعشة تتغلغل في نفسي ، استرخيتُ ... تمدَّدتُ تحت الظل ... سلطانُ النوم أمسك بي .. حاولتُ الخلاصَ منه .. راوغتُه .. ناورتُه ... عبثاً ، أحاط بي و أخذني إلى عوالمه .. إلى بياضه الناصع .. شعرت بلذة غريبة ، غادرني شعور الانزعاج و الامتعاض ، تمددتْ سحابةٌ بيضاءُ فوقي ، فجأةً تعكَّر الجوُّ ، صارت السحابة حمراء اللون غباريّةً، زوابعُ الرياح تعصف و تدور حولي محمَّلةً بالغبار تكاد تقذف بي ، أحاول التمسك بجذع الشجرة ، أمد يدي لكنها لا تصل إليها ، أتعرَّق ....أتصبب عرقاً و تعباً و يدي تتضرع للإمساك بشيءٍ ما ، يدٌ بيضاء تمتدُّ إليَّ تأخذ بيدي ، تسحبني إليها برفق ، شجيراتٌ شديدة الخضرة تنبثق حولي ، الندى يتساقط عن أوراقها و يغسل وجهي ، تختفي اليد من حولي تتبدد تتلاشى ، لم أعد أرها ، نبعُ ماءٍ يتدفَّق قرب قدميَّ ، ماؤه باردٌ و منعشٌ يحيط بي ، يصل إلى قدميَّ ، يبللهما ، يرتفع إلى ركبتيَّ .. فخذيَّ .. إلى خصري ... يغمرني ... أرشف منه رشفة ، أجدُ له حلاوةً مسكرةً تسحرني ، أرشف أخرى و أخرى و أخرى ، و أغيب عن نفسي .

البرقية

دخل علينا المكتب واثقاً من نفسه تمام الثقة ، ألقى تحية مختصرة على الحضور القليل ، و توجه للسكرتيرة قائلاً :

- "حليانة" كل مرة آتي إلى هنا أجدك تزدادين حلاوة

صمت قليلاً كفاصل بين جملتين، كانت السكرتيرة في الأثناء تلتزم الهدوء و تداري خجلها ، تابع :

ـ ألم يقل لك أحد من الشباب الحاضرين أنك "حليانة" ؟

زاد خجل السكرتيرة، أما نحن ، الثلاثةَ المنتظرين في المكتب ، فتابعنا بأنظارنا حركاته البهلوانية ، ثقته الزائدة بنفسه، و دخوله الصاخب الذي مزَّق الهدوء الرزين الذي كنَّا ننعم به ، العرق ينسرب من جبينه و يتصبب على خديه المكسَّرين بتجاعيد الزمن ، و يسيل خيوطاً لزجةً على رقبته المخنوقة بربطة العنق و الطقم الرسمي الذي يرتديه في هذا الوقت الحار من شهر آب الصيفي ، يحمل موبايلاته الثلاثة بيده ، تابع مجاملاته المتكلفة بشكلٍ واضحٍ و فجٍّ للسكرتيرة باعتباره نجماً فنياً ، سأل :

ـ هل السيد الوزير موجود ؟

ـ نعم .. هل هناك موعدٌ معه ؟ أجابت السكرتيرة سائلةً .

ـ لا .. جئتُ للمباركة فقط .

ـ أهلاً و سهلاً تفضل ... استرح قليلاً .

جلس على الكنبة بقربي و هو يمسح العرق عن جبينه ، و ينطِّطُ موبايلاته الثلاثة على يديه ، قبل أن يستقرَّ على الكنبة سأل :

ـ لقد أرسلتُ برقيةَ تهنئةٍ للسيد الوزير هل وصلتْ إليكِ ؟

أجابت السكرتيرة بهدوئها المعتاد بحكم خصوصية عملها في مكتب الوزير الذي يقتضي الهدوء و اللباقة :

ـ لا .. لم يصلني شيء .

ـ عجيب ـ قال مستنكراً و مستغرباً و متفاجئاً ـ يجب أن تكون قد وصلت فقد أرسلتها قبل عدة أيام ، معقول لم تصل ؟ !

ـ نعم لم تصلني أي برقية أبداً، قالت السكرتيرة مؤكدةً .

ـ عفواً تأكدي يا آنسة ، أرجو أن تتأكدي جيداً ، فقد أرسلت البرقية صباح يوم الأربعاء الماضي بالضبط ، و نحن الآن في ظهيرة يوم الأحد .

أجابت السكرتيرة بتهذيبٍ و بلهجةٍ رسميةٍ كأنه تقول له بشكل غير مباشر تحدث إليَّ كما أتحدث إليك ، و ليُخفِّفَ من طريقة حديثه الصاخبة ، خاصةً و أنه في مكتب عملٍ رسميّ :

ـ لم يصلني شيء كما قلت لكَ ، على كلِّ حال سأتصل بمكتب العلاقات العامة للمزيد من التأكُّد .

أجرتْ اتصالها .. سألتْ الموظفة عن أي برقية وصلت إليهم ، فكان الجواب بالنفي . وجهت كلامها إليه مؤكدة أن لا برقية وصلت إليهم .

ازداد اضطرابه ، و بدأ باتصالاته ، ملأ فضاءَ المكتبِ الذي كنا ننعم بهدوئه قبل مجيئه ، بحديثه و اتصالاته بصوتٍ عالٍ .

ـ آلوو .. أختي ؟ كيفك ؟ كيف أحوالك ؟ وصلتي إلي البيت ؟ تغدِّيتي ؟ آه .. أي .. تغدِّي .. كُلي .. لا تنتظريني أنا مشغول ، أنا أتحدث معك الآن من مكتب السيد الوزير ... ساعة و أنتهي ، الله يرضى عليك تغَدِّي ، برضايي عليكِ تغَدِّي و لا تنتظريني .

ثوانٍ معدودات من الصمت ، نحن الأربعة نتبادل النظرات التي تخفي الكثير من المشاعر المكبوتة تجاه هذا الضيف – النجم .

ـ آلوو .. مركز البريد ... يعطيك العافية ... أنا فلان .. .. أنا أرسلت صباح الأربعاء الماضي اثنتين و عشرين برقية ، بما فيهم برقية للسيد الرئيس ، و لم تصل البرقيات حتى الآن ... معقول ؟ معقول يا أستاذ ؟ برقية لا تصل بعد مرور أربعة أيام على إرسالها ؟ ! أنا أتحدث معك الآن من مكتب السيد الوزير ، و لم تصل إليهم أي برقية .. نعم ... ماذا تقول ؟ .. لا تسمعني جيداً .. أنا أتحدث من الموبايل ...نعم .. نعم .. التغطية .. حسناً .. هكذا أفضل ؟ تسمعني الآن ؟

قام يتحرك في المكتب و كأنه في بيته ، متجاهلاً وجود الجميع ، اقترب من النافذة التي تطل على ضواحي دمشق الجنوبية الشرقية ، أصبح خلف السكرتيرة يهدر بصوته و تساؤلاته و استفساراته ، ضارباً عرض الحائط بآداب الصمت

في مكتب عملٍ رسمي ، فيه أناس آخرون ينتظرون مثله لقاءً مع السيد الوزير ، تابع صخبه :

ـ هل يعقل يا رجل .. أنا أرسلت اثنتين و عشرين برقية ، بما فيهن برقية للسيد الرئيس للمباركة بالحكومة الجديدة و لم تصل حتى الآن ؟ ! نعم ... ماذا تقول ؟ أنا معك .. تريد أن تسأل زميلك ؟ تفضل أنا سأبقى معك اسأله .. يجب أن توضح لي السبب .. لماذا لم تصل البرقيات إلى الجهات التي أرسلتها لها .

يبدو من خلال كلامه أن الموظف سأل زميلاً له عن الموضوع ، فأكد أن البرقيات أُرسلت من قِبلهم، و تمَّ استلامها من الطرف الآخر.

ـ نعم .. ماذا تقول ـ تابع بامتعاض ـ أنتم أرسلتموها و تمَّ استلامها ؟ لكن أنا أتحدث إليك من مكتب السيد الوزير ، السكرتيرة أمامي و لم يصلها شيء ، لم تصل أي برقية .. هل يعقل ذلك (أعاد مجدَّداً و مؤكِّداً، و كأنه يريد أن يُسمعنا نحن ، و عن عمدٍ و قصدٍ أنَّ له صلاتِه مع الفوق.. أكيد فهمتم المقصود) :

ـ أنا أرسلت اثنتين و عشرين برقية بما فيهن برقية للسيد الرئيس لكن لم يصلوا .. أنا أتحدث إليك من مكتب السيد الوزير الآن .

تناهى إلى سمعي صوت الموظف عبر الموبايل قائلاً :

ـ يا أستاذ نحن أرسلنا البرقيات من عندنا ، و تم استلامها من الجهات المرسَل إليها مهمتنا انتهت هنا .

كنا ننظر إلى بعضنا نظرات تعبر عن الامتعاض و عدم الارتياح للصخب الذي افتعله هذا الضيف – النجم الذي لم يحترم مشاعر أحد ، و تصرف و كأننا غير موجودين ، عاد إلى الكنبة خائباً و لكن دون انكسار ، يعني بقي محتفظاً بكبرياء الخيبة ، فهو لن يتراجع عن متابعة هذا الخطأ الجلل لاحقاً ، جلس بجواري ينطط موبايلاته الثلاثة ، ثم انشغل بمحادثات عبر الواتس آب ، و بدأت أصابعه تصخب على شاشة الموبايل بعد أن انتهى من صخبه الصوتي في المكتب .

قلت : عفواً يا أستاذ الآن في عصر الاتصالات و الموبايلات لا داعي للبرقيات ، رسالة عبر الواتس آب أو التلغرام أو غيرهما من وسائل التواصل الاجتماعي تصل خلال ثوانٍ ، أنت تعلم أن البرقية تحتاج إلى أربع و عشرين ساعة كحدٍّ أدنى حتى تصل .

قال الرجل الجالس مقابلي :

ـ لكن للبرقية هيبة و اعتباراً أكثر ، أذكر قبل عشرين عاماً كان الناس يتفاخرون باستلام البرقيات في المناسبات الخاصة كالزواج أو الوفاة ، و يتعمَّد موظف البريد تسليمَ البرقية لأصحابها أمام الناس ، ليتفاخر أصحابُ المناسبة بالتوقيع على استلامها ، كما كانوا يحتفظون بالبرقيات كذكرى عن المناسبة .

قلت له :

ـ أنتَ قلت منذ عشرين عاماً ، الآن الوضع تغيَّر كثيراً ، لم يعد هناك أي داعٍ للبرقيات في عصر الواتس آب .

الضيف – النجم تجاهل حديثنا تماماً ، منصرفاً إلى محادثاته الوتسية ، و كأنه لا يسمعنا ، فقد ملأ المكتب ضجيجاً ، ثم ركن إلى خلوته الوتسية ، و انشغل بموبايلاته الثلاثة .

تبادلنا النظرات و هزَّات الرأس التي تعبِّر عن الاستغراب و عدم الرضا ، السكرتيرة عادت لمتابعة عملها بهدوء ، تردُّ على المتصلين بصوتٍ أقربَ إلى الهمس ، تلبّي طلباتِ الوزير الذي يتصل بين الحين و الآخر ، طالباً موظفاً أو ملفاً ما ، فلا يُسمع صوتها حتى من الجالس قريباً منها .

ـ الجو حار .. حار جداً ... ألا يوجد مُكَيِّف ؟ سأل السكرتيرة .

ـ منذ قليل أطفأت المُكَيِّف فقد أصبح المكتب بارداً .

ـ حرٌّ شديد .. إني أتصبَّب عرقاً يُفضَّل أن تُشَغِّلي المُكيِّف .

ـ كما تريد أستاذ .

بجهاز الريموت كونترول أعادت تشغيل المكيف ، عاد هو إلى صخبه الواتسي ، تبادلنا نظرات الاستغراب و الاستهجان مجدداً ، غطى صوتُ المكيف على تململات مشاعرنا الداخلية الصامتة ، تأملته ملياً ، تأملت تجاعيد وجهه ، انهماكه بالمحادثة الوتسية عبر الموبايل ، حاولت أن أتذكر له دوراً مميزاً في مسلسلً تلفزيوني أو فيلم سينمائي ، فلم يحضر في ذهني إلا أدواره الثانوية في الكثير من الأعمال التلفزيونية ، فهو ممثل من الصف الرابع أو الثالث على أكبر تقدير ، لكنه يتعامل و كأنه نجم تلفزيوني لامع من الصف الأول ، شعرت نحوه بالسخط بداية لطريقة دخوله الهجومية و المتكلفة و الاستفزازية ، و أسلوب محادثاته ، و تجاهله لنا جميعاً كأنه لم يُشاهدنا ، ثم شعرتُ بالاستخفاف به لأنه لم ينجح في رسم الهالة المرغوبة له التي حاول إيهامنا بها رغم الضجيج و

الصخب و المجاملات التي افتعلها ، عيناه تبرقان ، تحدقان و تَضِيقان لقراءة رسائل الواتس آب التي ينشغل بها ، حينها شعرت بالشفقة عليه لأنه لم يبقَ له من غير هذه الحركات البهلوانية الفارغة ، فجأة رنَّ الهاتف قرب السكرتيرة فأخرجني من تأملاتي و مشاعري ، همستْ السكرتيرة مجيبةً ، أعادتْ السماعة ، وجَّهتْ كلامَها لنا :

ـ تفضلوا السيد الوزير بانتظاركم .

هبَّ مسرعاً عن الكنبة ، قاطعاً محادثاته الوتسية ، متشبثاً بموبايلاته الثلاثة ، مندفعاً ليكونَ أولَ الداخلين المهنئين و المبارِكين ، فقد تميَّز عنَّا بأنه أرسل برقيةً منذ عدة أيام ، حتى لو لم تصلْ ، لا بل أرسل اثنتين و عشرين برقيةً بما فيهن برقية للسيد الرئيس ، فمَن نحن إزاءه .

الوشم

كان يريدُ التقاطَ صورةٍ للخاتم في إصبعِه ليرى مدى انسجامِه مع ساعة اليد ، ضبط الموبايل لالتقاط الصورة ، ثم .... فلاش . التقط صورةً تجمعُ الخاتمَ الفضيَّ اللونِ بالرسم الهندسي المنقوش على سطحه مع ساعة اليد بلونها المُنَكَّل و ميناها الأسود ... انسجامٌ واضحٌ بينهما ، همَّ بأن يشعرَ بالسرورِ و الارتياحِ ، و لكنْ فجأةً لفتت نظرَهُ بُقعٌ بنيةُ اللونِ على ظاهرِ يدِه ، من أين هذه البقع ؟ كبَّرَ الصورة جيّداً ، دقَّقَ في البقعِ البنية ؟ ترك الموبايل جانباً و أخذ يتأمَّل يدَه ، يتأمَّلُ البقعَ البنيةَ و كأنَّه يراها للمرة الأولى .

نعم . . . إنها المرة الأولى التي يرى يده فيها ، صحيح أن نظره يمرُّ في كل حينٍ على يده .. حين يكتب .. حين يقرأ .. حين يغسل يديه .. حين يصافح صديقاً ... حين .. و حين .. و حين .. الخ . و لكن الآن و للمرة الأولى يدقِّق و يُمعن النظر بظاهر يديه ، شعر بشيء من الانكسار و الخيبة ، و عَلِمَ أنَّ الزمنَ قد أدركه ، و أنَّ ما يشعر به من شبابٍ و فتوةٍ و نشاطٍ هو شعورٌ سطحيٌّ ظاهريٌّ ، و لكنَّ الحقيقة أنَّ الزمن يفعل فعله فيه ، في جسده ، في كلِّ خليةٍ بجسمه ، و لكنْ بكلِّ هدوءٍ و صبرٍ و مكرٍ أيضاً ، و لا تلهيه عن فعله تلك البهرجة التي يحيط بها المرء نفسه ، أو بالأصح يخدع بها نفسه .

عاود النظر إلى تلك البقع البنية التي تتمدد على ظاهر يده ، هي ليست وشماً أبداً ، فهو منذ صغره كان يكره الوشوم و ينفر منها ، رغم أنها كانت دَارِجةً كموضةٍ في تلك السنوات قبل عقودٍ من الزمن ، كان البعض يحبذها و يدقَّها عند النَّوَر بالإبرة كنوعٍ من الزينة و التباهي حيث تعطي لوناً أخضرَ كامداً يميلُ إلى الزُّرقةِ على الجلد ، و برسومٍ مختلفةٍ ، كان النَّوَر ماهرين برسم الوشوم على الجسد و في أماكن مختلفة منه ، اليدان .. الخدان .. أرنبة الأنف .. الجبين .. القدمان .. الساقان ... الخ . كان بعض أصدقائه يدقون وشماً بأسماء حبيباتهم ، أو يطلبون رسوماتٍ و أشكالاً معينة يُعجَبون بها و يتحمَّلون الألم ، ألمَ الوخز بالإبرة كي يتباهوا بالوشم ، و ربما بعد مضيّ أشهرٍ قليلةٍ أو سنواتٍ يختلفون مع حبيباتهم ، أو لم يعودوا معجَبين بالرسمِ الموشوم على يدهم فيعمدون إلى تحمُّل الألم من جديد كي يطمسوا ملامحه بوشمٍ جديدٍ . كان يكره هذه الوشوم لسببين : أولاً لأنه غير مستعدٍّ لتحمُّل الألم ، و ثانياً لأنه ربما غيَّر رأيه في المستقبل ـ و هذا ما كان يحصل مع أصدقائه دائماً ـ بأهميةِ هذا الوشم ، فماذا سيفعل ؟ لذلك كان جسده خالياً تماماً من أيِّ وشمٍ ، فمِنْ أين جاءت هذه البقعُ البُنِّيَّة ؟ التي تتمدَّدُ و تتسعُ على ظاهرِ يديه ؟

تأملها مجدداً و انتابته لحظة حزنٍ و انكسارٍ ، إنه الزمن ، لقد كبُرَ ، لقد تجاوز الخمسين من عمره ، و هذه البقع البنية التي يراها الآن كبيرةً كانت سابقاً نقطاً صغيرةً بالكاد تُرى ، كانت نَمَشاً على جسده خُلِقَت معه ، لونها بُنّيٌّ غامقٌ ، نقاطٌ صغيرةٌ جداً ، لكنها الآن تمدَّدت و اتسعت ، و تفتَّحَ لونُها إلى بُنّيٍّ ترابيٍّ .

استرخى على كرسيّه ، مدَّ نظره إلى الأفق البعيد ، وحده في المنزل ، الجميع خرج إلى مشاغله و أعماله ، وحيداً يجلس الآن بشيءٍ من الانكسار و الخيبة ، نظر إلى الخاتم ذي اللون الفضي الذي اشتراه بالأمس و نقش عليه رسماً هندسياً مميزاً ، كمْ كان يتوق للحظة التي سيلبسه فيها ، يضعه في خنصر اليد اليُسرى ليرى الانسجام بينه و بين ساعة يده .

لقد بحث كثيراً في أماكن بيع الفضيات من سوق المهن اليدوية حتى سوق الحريقة ، ساحة المسكية بنهاية سوق الحميدية أمام الجامع الأموي ، باعة الأرصفة الذين يبيعون الخواتم المعدنية و التقليدية ، كان يبحث عن خاتمٍ دونَ أيّ نقشٍ عليه ، لا يهمُّه من أيّ مَعدِنٍ كان ، حتَّى يتمكَّنَ من وضع الرسم الذي أعجبه ، و هو رسمٌ قرأ عنه في الحضارة الفرعونية ، عبارة عن نقشٍ هندسيٍّ يُدعى (خاتم الزُّهرة) ، وجد طلبه عند بائع يبيع الخواتم التقليدية زهيدة الثمن ، كم كان سروره كبيراً إنه حسب الطلب سطحه مربَّع الشكل أملس خالٍ من أيّ نقش ، اشتراه فوراً ، توجَّه إلى محلٍّ آخر يعمل فيه شابٌّ مختصٌّ بإنزال أيّ نقشٍ يريده الزبونُ على أيّ قطعةٍ معدنيةٍ أو بلاستيكيةٍ عن طريق اللايزر ، هناك أعطى الشابَ النقشَ المطلوب ، فقام بإدخاله على الحاسب و عالجه بأسلوبه الخاص ثم تناول منه الخاتم ، دقائق قليلة و كان النقشُ المطلوبُ مرسوماً بكلّ دقةٍ على سطح الخاتم ، شعر بسعادةٍ كبيرةٍ وضعه في إصبعه ، خنصرِ اليدِ اليُسرى ، و خرج مغموراً بالسعادة ، فكَّر أنه عندما يصل إلى البيت سيلتقط صورةً ليده بالخاتم الجديد المميز مع الساعة ، و يجعلها (حالة) له على الواتساب ، و أيضاً سينزلها على صفحته على الفيسبوك . بالتأكيد ستكون صورةً مميزةً و ستلفت انتباه كلّ أصدقائه ، وصل إلى البيت ، التقط بكاميرا الموبايل الصورة ، همَّ بوضعها حالةً له . و لكنْ ... بَدَت له تلك البقع اللعينة على ظاهر يده ، فألغت كلَّ رغبةٍ ، و حرفت تفكيره باتجاهٍ آخر .

عاد بذاكرته سنواتٍ و سنوات إلى الوراء ، عاد إلى الطفولة و المراهقة و الشباب ، كانت هاتان اليدان طريتين لدنتين بيضاوين و صغيرتين ، تذكر محاولاته الأولى للإمساك بالقلم في الصف الأول ، كم كان يجد صعوبة في الإمساك بالقلم بين السبابة و الإبهام مُسنِداً إياهُ على الإصبع الوسطى ليخطَّ حروفه و كلماته الأولى . كم نال من العقاب من معلمته في المدرسة ، و من أمه في البيت التي كانت تتابع

دراسته مع أخوته رغم أميتها و عدم معرفتها للقراءة و الكتابة ، لكنه كان يظنها لا تقلُّ عن المعلمة معرفةً و فهماً . لقد عانى و عانت معه حتى أتقن إمساكَ القلم و الكتابة بخطٍّ جميلٍ و مرتَّبٍ .

تذكَّر كم تحمَّل ظاهرُ يده من العقوبات و الضرب بالمسطرة من قبل بعض الأساتذة في المرحلتين الابتدائية و الإعدادية حيث يعمدون إلى أقسى العقوبات و هي الضرب على ظاهر اليد بخلاف المعلمين الآخرين الذين يعاقبون بالضرب على باطن اليد .. راحة الكف و هو أقلُّ ألماً .

كما تذكَّر تلك اللعبة التي كانوا يلعبونها صغاراً ، حيث يلعبها اثنان فقط يقوم الأول بوضع يديه مقلوبة على الأرض ، بينما يحاول الآخر و هو واضعٌ يديه الاثنتين على عينيه بمفاجأته و ضربه على يديه قبل أن يسحبهما ، و إذا فشل تنقلب الأدوار و يحلُّ أحدُهما مكانَ الآخرِ و هكذا ، و كم مرة جاء إلى البيت و يداه محمرتان من الضرب ، و لكنها كانت لعبةً مثيرةً للأولادِ في ذاك الزمن ، حاول أن يتذكر صديقه في تلك المرحلة الذي كان يلعب معه تلك اللعبة ، حاول جاهداً نقَّب في ذاكرته الوجوهَ و الأسماءَ ، لكنه عجِز عن تذكُّرِهِ ، هذا أيضاً مؤشرٌ آخرُ على فعل الزمن ، ضعفُ الذاكرة ، تُرى هل سيصيبه مرض الزهايمر الذي قرأ عنه كثيراً في الصحف و سَمِع عنه في الأخبار في سنوات عمره القادمة ؟ انتابه شعورٌ بالخوف ، عجِز عن تصوُّرِ نفسه غيرَ قادرٍ على تذكُّرِ أيِّ شيء ، حتَّى أنَّه خاف من الاستمرار بهذا التفكير و لو كان خيالاً ، و تساءل : أيُّ مصيرٍ ينتظر الإنسان ؟ و أيُّ شيخوخةٍ يصيرُ إليها ؟ تذكَّر أنَّ والدتَه كانت تدعو دائماً دعوتَها المفضلة :

" الله يستُر كبرتنا "

نعم .. ما أجملَها من دعوةٍ ، ردَّدها بينه و بين نفسه ، تُرى كيف شكلُ يدي والدته الآن ؟ حاول أن يتصوَّرَه لكنه عجز ، لم يخطر بباله الانتباه إلى يدَي تلك الأم العجوز ، و ما فعل الزمن بهما ، تلكما اليدان اللتان بفضلهما و بعذابهما و بالأعمال الصعبة التي قامتا بهما استطاع متابعة تعليمه و صار على ما هو عليه الآن ، قرَّر بينه و بين نفسه أن يدقِّقَ النظر بيدي أمه حين سيزورها ، ليرى ما تركه الزمن و العمل من تجاعيد و أخاديد عليهما ، ليقارن بين يديه اللتين لم تتعبا كثيراً في مزاولة العمل اليدوي و الزراعي ، و بين يدي أمه التي كافحت و تعبت و لم تتردَّد في القيام بأي عملٍ مهما كان متعباً لأجلهم و لتأمين احتياجاتهم ، حاول أن يتذكر أيضاً يدي أبيه المتوفى منذ سنوات ... و لكن عبثاً لم يستطع .

تأمَّل الخاتمَ و الساعةَ و انسجامَهما على يده ، شعر بسخافةِ تفكيرِه ، بتفاهتِهِ و صَغارِهِ و هو يَشغَلُ نفسَه بهذه الترهات ، تمنَّى لو عاد به الزمنُ إلى الوراء عشرين .. ثلاثين سنة ، تخيَّلَ لو أنه الآن إلى جانب أمه و أبيه يعملون في حاكورة البيت ، ينكشون التربة ليزرعوا الفول و الحمص ، و يبذروا البقدونس و الخَسَّ و شتولَ البندورة لتأمين حاجة البيت من هذه الخضروات و البقول ، و لكنْ .. هيهاتِ .. هيهات .

نظر إلى جهاز الموبايل ، اجتاحته رغبةٌ بتحطيمِه ، لكنَّه كبحَها ، كبحها لسببين ، لأنَّ سعرَه غالٍ و لن يتمكنَ من شراءِ جهازٍ جديدٍ ، حين تزولُ السَّكرةُ و تأتي الفكرةُ كما يقولون ، و لأنَّ هذا الجهاز أصبح ضرورياً جداً في حياتنا ، و إذا انساق وراء رغبته الانفعالية الآن سيندم لاحقاً ، تذكَّر أن أباه توفي قبل أن يغزو هذا الجهاز حياتنا و يتغلغل في كل تفاصيلها ، أمَّا أمُّه فهي تستعمله كهاتفٍ فقط ، لتتواصلَ معهم و يطمئنوا عليها ، لقد اشترته من تعبها و جهدها و ممَّا ادخرته ، و لم تطلبْ من أيٍّ واحدٍ منهم شراءه لها حتى لا تحمِّله عبئاً جديداً فوق الأعباء الكثيرة التي يتحملها لتأمين احتياجات أسرته ، فهي تعرف ظروفهم الصعبة و تُقَدِّرها ، شعر الآنَ أنه لا يقدِّرُ جهودَ والدَيه ، و كم تعذبا من أجله و أجل أخوته ، لم يعيشا حياتهما إلا من أجل توفير ما يحتاجونه ، لا يذكر أنه كانت لهما رغباتٌ خاصة ، أو أنهما اشتريا أشياء لهما ، كلُّ شيءٍ كان للبيت و الأولاد ، نعم ... له و لأخوته ، و ها هو الآن يضيّعُ وقتَه و ماله بحثاً عن انسجامٍ تافهٍ بين خاتمٍ و ساعةِ يدٍ يريدُ أن يتباهى بهما في صورةٍ فارغةٍ يضعُها على الواتساب أو الفيسبوك **؟!!** أيُّ صَغارٍ و فراغٍ و سُخفٍ وصلَ إليه تفكيرُه ؟ شعر بالغمِّ يملأ صدره ، نزع الخاتم من إصبعه و ألقاه جانباً ، الخاتم الذي كان قبل قليلٍ مميزاً و مدهشاً صار قطعةً معدنيةً لا قيمة لها في نفسه ، أغلق الموبايل حتى لا يسمعَ رنينَه إذا ما اتصل أحدٌ به ، خلع ساعته من يده ، رأى من جديد تلك البقعَ البنيةَ بلونِها الترابي تتمدَّد و تتقلَّص ، تتَّسِعُ و تصغُرُ ، و ظاهرُ يدِهِ يتجعّدُ و ينبسطُ ، أصابعُه تنكمش و تتمدَّد ... تُرى ما به ؟ ماذا أصابه ؟ لماذا التوى رأسه مُنحنياً على كتفه الأيمن ؟ تُرى أيُّ صورةٍ أغمضت عليها عيناه **؟؟!!**

بانتظار الغاز

- هل تَرى هذا الوضعَ السيئَ الذي وصلنا إليه ؟ هذا كلُّه بسببِ ابتعادِنا عن الدين الإسلاميّ الصحيح و عدمِ فهمِنا له .

هززتُ برأسي علامةَ السَّمعِ و ليس علامةَ الرِّضا ، لكنَّه على ما يبدو فهِمَها علامةً على الرِّضا و الاقتناعِ بما يقول ، فتابع :

ـ الشاعر القروي جرجي زيدان لا بدَّ أنَّكَ سمعتَ باسمِه ؟

فَنْجَرتُ عَينيَّ مستغرِباً كلامَه ، فتابع دون اهتمامٍ باستغرابي :

- عندما كان في الأرجنتين دعوه لزيارةِ البرازيل بمناسبةِ عيدِ المولدِ النبويّ للمشاركةِ و إلقاءِ كلمة .
- إي !!!
- احذرْ ماذا قالَ للحاضرين ؟
- ماذا قال ؟
- قال لهم عندكم دينٌ إسلاميٌّ رائع و لكنَّكم لا تعملون به ، صمتَ قليلاً ثم تابع ، لذلك صار بنا هكذا و ساءتْ أحوالُنا .

نظرتُ إليه ، رجلٌ في العقدِ الثامنِ من عمره ، يبدو عليه أنه يعتبر نفسه موسوعةً علميةً لا تُجارى ، سمعتُ كلامَه ، تعوَّذتُ و حوقلتُ ، و تبرَّمتُ من هذا الصباح الذي جعلني أستمع لهذا الرجل الذي يهرف بما لا يعرف ، و لا يعرف أنه يخرِّف و يهرف ، و هنا لبُّ المشكلة الكبرى ، لا بدَّ أنه ظنَّني رجلاً ساذجاً بسيطاً من خلال مظهري ، كنتُ قد لبستُ طاقيةَ صوفٍ وضعتها على رأسي لأقِي صلعتي من البرد ، ذقني غير حليقة ، ارتديتُ معطفي البسيط مع بنطال الجينز و حذاءٍ رياضيٍّ ، فالناس عموماً في مجتمعاتنا تقيِّم المرءَ من خلال مظهره ، لقد قرَّرتُ منذ الصباح الباكر أن أخصِّصَ هذا اليوم للحصول على أسطوانة غازٍ منزلي حتى لا ننقطعَ من الغاز في هذه الظروفِ الصعبة ، لذلك ارتديتُ لباسَ الرَّاحةِ و التسكُّعِ كما أسمِّيهِ لأنَّه يُشعرني بالحريَّةِ و الرَّاحة في التنقُّل ، فقد مللتُ من اللباسِ الرسميّ ، الطقم و الكرافة و سوى ذلك ، هذا للدوام فقط ، ثم من غير المعقول أن أقفَ في طابورٍ طويلٍ عريضٍ بانتظار الغاز ، و ما يتخلَّلُ ذلك من طَحْشٍ و دَفْشٍ و تدافُعٍ و أنا أرتدي طقماً رسميَّاً ، بالتأكيد سأصبحُ مسخرةً ، انتشلني الرجلُ من أفكاري و سألني :

- ما رأيُكَ يا معلم بما قلت ؟ أليسَ صحيحاً ؟ و الله كلامُه دُرَرٌ لكنْ مَنْ يفهمُ هذا الكلام .
- سألني و أجابَ عنّي ، التفتُّ إليهِ و تذكَّرتُ أنَّه قبلَ حوالي الساعتين من الآن حين جاءَ ليحجزَ دوراً بعثرَ بعضَ الحجارة و الكراتين و التنك ، و وضعَ أسطوانته في مقدّمة الدور ، قبلَه حوالي ستِ أسطواناتٍ بينهم أسطوانتي ، صرخ و زمجر رغمَ عمرِهِ المتقدمِ مستنكِراً هذا الأسلوبَ بالحجز ، يأتي أحدُهم و يضع شيئاً ما في الدور ، و يذهبُ إلى بيتِه ليرتاحَ ، ثم يأتي إذا صار وقتُ التوزيع ، ليأخذَ أسطوانةً على باردِ المستريح ، بينما نحن نكون قد أخذنا نصيبنا من البردِ و التعبِ و الانتظارِ وقوفاً في هذا الطقسِ الشتائيّ القارس ، للأمانةِ من هذه الناحية معَه حقٌّ ، ولكنْ نحنُ في مقدَّمةِ الدَّورِ تعاملنا مع الموضوعِ بلامبالاة لأنَّه لا يعنينا ، كان دوري الرابع ، فقد جئتُ حوالي الساعةِ الثامنةِ و الربع صباحاً ، و جدتُ ثلاثة أشخاص و الكثيرَ من الحجارةِ و غيرِها ، لكنَّ صاحبَ الدورِ الأول سألني ما إذا كانتْ الأسطوانةُ معي ، فأكَّدتُ له أنَّها معي ، قال : ضَعْها هنا بعدَ أسطواناتي حتَّى لا تفقدَها ، فسرقةُ أسطوانات الغاز دارِجةٌ كثيراً هذه الأيام ، و فعلاً عملتُ بما أشار به عليَّ ، و جلستُ أنتظرُ معهم .

وجَّهَ كلامَه إليَّ من جديد :

ـ إيْ معلِّم .. ألا تسمَعْني ؟ أينَ شردتَ ؟

انتبهتُ إليهِ و قلتُ :

ـ لا .. لا أسمعُكَ ... أسمعُكَ جيّداً .

ـ أليس صحيحاً ما قلتُ ؟ أعدتُ في ذهني الكلامَ الذي قاله ، و قد خلطَ فيه عبَّاسَ بدبَّاس كما يقولون ، و فكَّرتُ هل أصَحِّحُ له ما قال ، و أنَّ الشاعرَ القرويَّ هو شخصٌ آخرُ غيرُ جرجي زيدان ؟ و أنَّ كلامَه ذاكَ كلَّهُ من بناتِ خيالِه و أوهامِه ؟ لكنَّني قرَّرتُ أنْ أجاريَهُ و أردَّ عليهِ بأسلوبِه . قلتُ له :

ـ نعم .. صحيحٌ مئةً بالمئة ، و تأكيداً لكلامِك أنشتاين لا بدَّ أنَّكَ سمعتَ به ؟

ـ بالتأكيد سمعتُ به ، و هل هناكَ من لم يسمعْ به ؟ قال باعتزازٍ و فخرٍ .

ـ أنشتاين حين زار مكَّةَ المكرَّمة بدعوةٍ من المملكةِ السعودية للمشاركةِ في احتفالِ رأسِ السَّنةِ الهجريةِ ماذا قالَ هناك ؟

ـ لقد قرأتُ شيئاً عن ذلك لكنَّني لا أتذكَّرهُ الآن .

ـ أنا أذكِّرُكَ بما قال ، لقد قال لهم إنَّ الإسلامَ أفضلُ دينٍ في العالم ، و أنَّ كلَّ علومِهِ و اختراعاتِه منه ، و أنَّ النظريةَ النسبيةَ لا بدَّ أنَّكَ سمعتَ بها ؟

ـ نعم ... نعم .

ـ النظريةُ النسبيةُ و غيرُها استوحاها من الإسلام ، لا بلْ قالَ لهم أيضاً إنَّه سيتخلَّى عن دينِه اليهودي و سيعتنقُ مؤقتاً المسيحيةَ و من ثم سيتركُها ليلتحقَ بالدينِ الإسلامي .

هنا انتفض صاحبي مُحتدَّاً و قال :

ـ لا يا معلِّم ... هذا لا يجوز ؟

ـ لماذا لا يجوز ؟ ألا تريد للرجل أن يهتدي ؟

ـ نعم أريد أن يهتدي ، الله يهدينا جميعاً ، لكن يجبُ أن يعتنقَ الإسلام وهذا هو الصوابُ .

فجاريتُه و قلتُ : نعم .. نعم و لكنْ لا تنسى أنَّ تسلسلَ الأديان كان هكذا : اليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام ، و به يختم حياته ، هل تريدُه أن يتجاهلَ الدينَ المسيحيَّ , أنت تعلم أنه يعيش في أوروبا و هناك الاغلبية مسيحيون ، لا بدَّ له أن يجاملهم بالحدِّ الأدنى ؟

ـ آه .. إذا كان هكذا فلا بأس .

ـ نعمْ ... هكذا و نص .

و تابعتُ مُتحدِّثاً بكلامٍ أنا لأوَّلِ مرَّةٍ أسمعُ به ، و لم أتوقَّعْ أنَّني بحياتي كلِّها يمكنُ أنْ أتفوَّهَ بهِ ، فيه من التخريفِ و التهريفِ و التجديفِ و الخلطِ ما لا يعلمُه إلا الله . كان صاحبي مصغياً إليَّ باهتمام ، علمتُ منه خلالَ حديثِنا أنَّه تلقَّى تعليمَه حتى المرحلةِ الابتدائيةِ ، ثم تركَ الدراسةَ بناءً على رغبةِ والدِه و التحقَ بمحلٍّ لتصليحِ السَّياراتِ ، و صارَ ميكانيكياً ماهراً ، لكنَّ هذا العملَ متعبٌ ، طوالَ النهارِ مُستلقياً تحتَ السَّيَّارات ، صيفاً و شتاءً ، يداهُ بينَ الشَّحمِ و الزَّيتِ ، على : هاتْ مفك عشَرة ، خُذْ مفتاحَ خمسة عشرة ، ارفعْ الكريك .. نزّلْ الكريك ، لذلك طوَّر نفسَه ـ كما قال ـ بعد أن جَمَعَ مبلغاً من المال ، و فتحَ محلاً لبيعِ قِطعِ تبديل للسيارات ، و الحمدُ لله ، الله فتحَها عليهِ و الوضعُ الآن عالْ العالْ .

صارتْ الساعةُ الآنَ حوالي الحاديةَ عشرةَ و النصف ، فجأةً حصلتْ جلبةٌ بين الطابور ، و بدأ البعضُ يتناولُ اسطوانتَه على عجلٍ تاركاً الدورَ باتجاهِ مبنى البلدية ، ناتعاً اسطوانتَه على كتفيهِ ، أو مستأجِراً سيارةَ أجرةٍ .

استفسرنا عن الموضوع ، فعلِمنا أنَّ رئيسَ البلديةِ قرَّرَ أن يكونَ توزيعُ الغازِ قربَ مبنى البلدية ، هنا انفجرَ صاحبي و تلفَّظَ بكلامٍ فيه من البذاءةِ و السُّبابِ و الشتائمِ ما لا يخطرُ على بالِ أمثالي ، تناولتُ أسطوانتي ، قذفتُها في صندوقِ السَّيَّارةِ ، و فوراً إلى مكانِ التوزيعِ الجديدِ ، و أنا أهيئ نفسي لخوضِ معركةٍ جديدةٍ على الدور ، لكنَّها كانت أهونَ عليَّ من خوضِ حديثٍ خُنفُشَاريٍّ مع أمثالِ صاحبي هذا . و صلتُ إلى المكانِ الجديد ، رأيتُ جَمْعاً غفيراً من المنتظِرين ، و ضعتُ أسطوانتي في الطابور لحجزِ دور ، كان ترتيبي حوالي الخمسين ، بعد قليل رأيتُ صاحبي العجوز يُشبّرُ بيديه و يتصايحُ مع مَنْ حولَهُ ، و يبحثُ عن آخرِ الطابور ليضعَ أسطوانتَه لاعناً كلَّ ما يقعُ أمامَهُ ، أما أنا فلعنتُ منْ قرَّرَ تغييرَ مكانِ التوزيعِ ، و لعنتُ أيضاً كلَّ أنواع الغاز .

تحوُّلات

دخل فجأة إلى المقهى القريب من قصر العدل في دمشق ، رجل في الأربعينات من عمره ، ما تزال بقع الدم القانية منثورة على ثيابه ، جلس على أقرب طاولة عند الباب الحديدي المطل على الشارع ، وضع ساطوره المدمَّى على الطاولة ، و بدأ يلتفت يمنة و يسرة ، كل الثرثرات و الضجيج و قرقرة النراجيل توقف ، أصبح الحضور واجماً كأن على رأسه الطير كما يقال ، الأنظار كلها مصوبة باتجاه هذا القادم المجهول ، عندما بدأ بالالتفات يميناً و يساراً أشاح الجميع نظره عنه حتى لا يثير غضبه ، فيرتكب جريمة جديدة في المقهى ، خاصة و أن ساطوره المدمَّى يجثم أمامه على الطاولة ، كأنه ينتظر إشارة منه لحزّ أيِّ رأس لا يُعجبه .

استقر على الكرسي ، بدأ ينظر إلى قطرات الدم على يديه و ثيابه ، ثم ينتقل بنظره إلى الساطور ، أخرج علبة تبغ من جيبه ، أسند ظهره إلى مسند الكرسي ، بدأ يلفُّ سيكارة بكل هدوء .

صاحب المقهى يتلقى نظرات الحاضرين المتسائلة و المستغربة بصمت ، هو أيضاً قلق و محرج و ينتابه شيء من الخوف مثلهم ، و لا يريد لمقهاه أن يكون مسرحاً لجريمة جديدة قد يرتكبها هذا القادم المجهول ، نُدُل المقهى توقفوا عن حركاتهم الدؤوبة بين الطاولات لتلبية طلبات الزبائن ، صاروا كالأصنام متحلِّقين قرب صاحب المقهى بانتظار توجيهاته .

لقد تحول المقهى في لحظة واحدة إلى سُرادق عزاء ، و لكن لا صوت لقارئ القرآن ، بعض الجالسين على الطاولات القريبة من القادم الجديد بدؤوا يتململون و ينسلون بهدوء خارج المقهى خشية أي تماسٍ بنظرة تجرُّ كلمةً تجرُّ وراءها فعلاً لا تُحمد عُقباه .

تُرى ماذا فعل هذا القادم ؟ أي جريمة ارتكب ؟ لماذا لم يتعقَّبه أحد ؟ ! ها قد مرت خمس دقائق لكنها تعادل خمس ساعات ، بل خمسة أيام و لم يدخل بعده أحد ، أين الشرطة ؟ ألم يره أحد و هو يدخل المقهى و الدماء على ثيابه ويديه، و الساطور معه ؟ تساؤلات كثيرة كانت تدور في رؤوس الحاضرين الجامدين على كراسيّهم ، بينما القادم المجهول يعبُّ من سيكارته و يطلق سحب الدخان في الهواء ، بين الحين و الآخر يتلفت يميناً و يساراً ، بعد أن هدأ و استقرَّ على الكرسي ، صفق بيديه كأي زبون عاديٍّ ، و كأنه لم يَثِر الرعب و الخوف في قلوب الحاضرين .

همس صاحب المقهى لأكبر النُدُل سنَّاً و طلب منه أن يذهب إلى الرجل ليعرف ما يريد ، اقترب النادل بهدوءٍ و حذرٍ و صمتٍ ، وقف قرب القادم كأنه خادمه ، و لولا

الحرج لقال له : مُرني سيدي ، لكنه بقي صامتاً و عاجزاً عن الكلام بانتظار الطلب ، حين رآه الرجل قال بكل هدوء :

ـ كاس شاي أكرك عجم مع كاس ماء .

انحنى النادل و تلعثم بكلام غير مفهوم و عاد أدراجه لإحضار الطلب .

الرجل مازال ينفث دخانه ، و يلقي نظراته نحو الشارع و قد قلَّ عدد المارين فيه، بالتأكيد كل من يراه يفضل الابتعاد عملاً بالمثل القائل : ابتعد عن الشَّرِّ و غنِّ له .

الأصدقاء الأربعة الذي كانوا يلعبون "التركس" و يقرقرون بنراجيلهم و يثرثرون بأحاديثهم و تعلوا أصواتهم غضباً عند أي خطأ في اللعب ، صمتوا ، ثم بدؤوا يتهامسون ، قال الأول :

ـ ما هذا ؟ معقول رجل يرتكب جريمة و يدخل إلى المقهى ؟

قال الثاني :

ـ معك حق خاصة و أننا لم نلحظ أحداً يلاحقه ، معقول تمكَّن من الفرار ؟ ثم لماذا قصد المقهى ؟ و هل تنقصنا المصائب ؟ يا رجل لم نعد نستطيع التحدث بأي كلمة ، فربما يغضب ، و يرتكب جريمة ثانية .

قال الثالث :

ـ يا أخي القصر العدلي قريب مِن هنا ، خطواتٌ فقط بينه و بين المقهى ، و أظن أن هذا الرجل قتل غريماً له ، ربما جريمة ثأر أو جريمة شرف ... الله أعلم .

قال الرابع :

ـ أكيد ... لا بدَّ أنه ارتكب جريمة ما و هذا الأمر يحدث أحياناً ، العام الماضي تذكرون عندما قام أحد الموجودين في الشارع بإطلاق النار على رأس أحد الموقوفين لحظة نزوله من سيارة السجن للمحكمة ؟

ردَّد الثلاثة معاً : نعم ... نعم .. نذكر .

قال الأول :

ـ فعلاً يحدث مثل هذا لكن لماذا جاء إلى المقهى ؟ الأفضل أن يفرَّ و يتوارى عن الأنظار بعيداً ، و لكنْ .. اصبر قليلاً .. نصف ساعة .. ساعة بالكثير و ستجد

الشرطة تملأ المقهى ، لا بد أنهم يتحضَّرون لذلك و يطلبون مؤازرة ليتمكنوا من القبض عليه .

قال الثاني :

ـ على كل حال لا داعي للنظر نحوه ، دعونا نكمل اللعب و يا خبر بفلوس بعد ساعة ببلاش .

*****

وضع النادل الشاي على الطاولة أمام الرجل مع كأس الماء البارد ، همس الرجل بأذن النادل شيئاً فأشار النادل باتجاه المغاسل ، قام الرجل على مهل تناول ساطوره المدمى و توجَّه نحوها ، الأنظارُ مصوبةٌ نحوه ، على خطواته الهادئة و الواثقة ، و نظراته التي لا تدلُّ على أيّ خوفٍ أو قلقٍ يعتريه ، فكَّر الجميع : لا بد أن يكون هذا الرجل مجرماً محترفاً فهذه الثقة في حركاته تدلُّ على ذلك .

مازال جوُّ المقهى واجماً ، عددُ الحاضرين يتضاءل ، البعض اغتنم فرصة دخول هذا القادم إلى المغاسل و فرَّ بنفسه طالباً السلامة .

خرج من المغاسل منظفاً آثار الدم عن ثيابه و ساطوره ، وقف في منتصف المقهى ، ألقى نظرة على الحاضرين و توجه بالكلام إلى صاحب المقهى :

ـ السلام عليكم ... عدم المؤاخذة أزعجتكم ، ما كان يجب أن أدخل إلى المقهى بمنظري هذا ، و لكن لا يوجد مكان آخر أغسل فيه يدي من الدماء .

صمت قليلاً ، تجوَّل بنظره على الحاضرين ، تابع :

ـ بكل الأحوال أنتم مدعوون لعزيمة غداء على حسابي ، صفيحة و مشاوي يتم تجهيزها الآن في مطعم أبو عبدو بباب الجابية ، هو قريب من هنا ، الساعة الثالثة بعد الظهر ، الدعوة للجميع ، خروف غنم وزنه أكثر من مئة كيلو لحسابكم ، أنتم فقط ادعوا لابني بالتوفيق و السلامة ، الحمد لله اليوم صدر الحكم ببراءته من التهمة التي وُجِّهت إليه ، و قد نذرتُ أن أذبح خروفاً أمام القصر العدلي عند ثبات براءته ، و هذا ما حصل اليوم ، الساعة 3 بانتظاركم جميعاً في المطعم ، كلوا و ادعوا و ألف صحة و هَنَا .

مشى بخطواته التي لم تعد متوازنة ، أخذ يتلقى التهنئات و التبريكات من الحضور ، و يحيي بيديه الحضور كممثل مسرحي و هو يسير نحو طاولته ، الطير التي كانت رابضة على رؤوس الحضور طارت ، و عادت الحركة إلى طبيعتها ، و

الابتسامات أشرقت على الوجوه تعكس الارتياح ، صاحب المقهى و عماله قاموا نحو الرجل يسلمون عليه و يهنئونه ، و كذلك بقية الحاضرين ، جلس على طاولته و عاد ينفث دخانه و يحتسي شايه ، و يتلفت يمنة و يسرة و يتململ في جلسته .

الرجال الأربعة عادوا لمتابعة لعبة التركس ، و للحديث و الثرثرة ، قال الأول ساخراً بصوت منخفض :

ـ معقول ؟ معقول هذا التخلف ، يذبح خروفاً أمام قصر العدل في الشارع لأن ابنه خرج بريئاً ؟ ليصبرْ حتى يصلَ إلى بيته و هناك ليفعلْ ما يشاء .

أجاب الثاني :

ـ أناس متخلفون حرام أن يعيشوا بيننا ، و لكن بما أن هناك عزيمة غداء فليذهب إلى الجحيم هو و ابنه .

قال الثالث : و الله يخطر ببالي أن أتوجه إليه و أصفعه كفاً مخمَّساً يعلِّم على خديه و يُنسيه حليبَ أمه ، و براءة ابنه ، قال نذر قال ، نشَّف الدمَ بعروقنا لسببٍ تافهٍ ، يجب أن يقوم أحدنا و يمسح به الأرض حتى يتعلم .

أضاف الرابع :

ـ لاء و مبسوط ... سعيد كثيراً بما فعل ، و يدعونا لعزيمة غداء و كأنه أنجز إنجازاً عظيماً ، عليّ الحلال لولا العيبُ و الحياء لقمتُ إليه الآن و زففته زفة مرتبة و بهدلته بهدلة لا يعرف كيف يخرج بعدها من هنا ، قال يشرب الشاي و يدخن . إن شاء الله سمّ الهاري .

سأل الأول :

ـ هل تقصد أنك لن تلبي الدعوة و لن تذهب إلى المطعم ؟

قال الثلاثة معاً :

ـ أكيد سنذهب ، شعرة من ذنب الخنزير مكسب مازال لدينا وقت كافٍ ، دعونا نتابع اللعب حتى ذاك الحين .

عاد الأربعة لمتابعة اللعب ، و عادت نظرات رواد المقهى مصوبة باتجاه الرجل ، و لكن هذه المرة كانت نظرات غضب و احتقار و استخفاف ، زال الخوف و القلق بعد أن عرفوا وضعه ، و لولا الساطور الجاثم أمامه و الرغبة بتناول الطعام على

حسابه لقاموا إليه قومة رجل واحد و طردوه من المقهى بعد علقة مرتبة و شرشحوه و انتقموا لدقائق الخوف و التوتر التي مروا بها ، و التي تعادل ساعات و ساعات .

تبادلوا النظرات فيما بينهم و التي تشي باتفاق ضمني و تفاهم صامت ، و عاد كل واحد إلى حالته الطبيعية، بينما القادم المجهول يرشف الشاي و ينفث الدخان ، و يتابع بنظراته المارة من أمام المقهى .

*****

فجأة دخل رجل و معه شابان ، انقضوا على القادم المجهول و بدؤوا بلكمه و رفسه دون مقدمات ، صراخهم و سبابهم ملأ المقهى ، قام صاحب المقهى و عماله ليعرفوا ما يجري ، و تدخلوا لفك الاشتباك و الفصل بينهم و بين الرجل ، و ليعرفوا لماذا يضرب هؤلاء هذا الرجل الكريم دون سبب ، فعزيمة الصفيحة و المشاوي أسالت لعاب كل من سمع كلام الرجل ، و من خلال كلامهم تبين أن هذا الرجل القادم المجهول قد سرق خروفاً لهم ، كانوا قد ربطوه أمام محلهم ريثما يذبحونه ليبيعوه لزبائنهم ، و عليه إما أن يعيده أو يدفع ثمنه ، حالَ صاحبُ المقهى و عمالُه بين الرجال الثلاثة و القادم المجهول حتى لا يستمروا بضربه ، ريثما يتم إصلاح الأمر و الوصول إلى حلٍّ لهذا الخلاف ، بينما الرجل انكمش على نفسه ، عيناه زائغتان في فضاء المقهى ، و قد تعفرت ثيابه و ظهرت الكدمات على وجهه ، و بان ضعفُه و هشاشته .

الرجال الأربعة في هذه الأثناء توقفوا عن اللعب ، بدؤوا يراقبون ما يجري أمامهم ، تحولت نظراتهم نحو القادم إلى احتقار ، و شعروا بالسعادة من الرجال الثلاثة الذين انهالوا عليه بالضرب نيابةً عمَّا تمنُّوا أن يفعلوه هم ، إذن هو حرامي و سارق ، و يريد أن يتكارم من حساب غيره ، يستحق ما يناله من ضرب ، " تفووه عليك يا واطي يا حرامي " هذا ما يقوله جميع الحاضرين في قرارة أنفسهم .

لم تمض دقائق قليلة حتى ظهرت مجموعة من الرجال يرتدون ملابس بيضاء تدل أنهم ممرضون ، أحاطوا بالرجل فوراً و أمسكوا به ، حاول الخلاص تململ ....انتفض ، و لكنهم تمكنوا من تكبيل يديه ، اعتذروا من الحضور جميعاً و أوضحوا لهم الحقيقة ، هذا الرجل مجنون تمكن من الفرار من المشفى ، هو يتخيل أن له ابناً محبوساً بتهمة ظالمة ، و أن حكماً ببراءته قد صدر ، لذلك لا بد من أن يفي بنذره ، و أن يذبح خروفاً و يطعم منه كلَّ من يراه ، مع العلم أن هذا الرجل المريض لم يتزوج أبداً ، أوضحوا ذلك للجميع ، اعتذروا عما جرى ، اصطحبوه معهم و خرجوا .

الرجال الثلاثة انتابهم شعور بالخيبة و الخسارة ، و خرجوا من المقهى مسرعين نحو مطعم أبو عبدو قبل أن يتصرف بالخروف المذبوح ، و بالتالي يضيع حقهم و خروفهم ، الرجال الأربعة عادوا إلى طاولة الورق و هم يحوقلون ، و شعورٌ من الحزن و الأسى يعلو وجوههم على هذا الرجل الذي فقد عقله ، صاحبُ المقهى رافق الرجال الثلاثة لتوضيح الأمر لصاحب المطعم ، بينما عمال المقهى ، بعد دقائق من الإرباك و المفاجأة ، عادوا إلى طبيعتهم حتى تعود أجواء المقهى إلى حالتها العادية ، و صاروا يتحدثون عن الموضوع كطرفة عجيبة و غريبة مثيرة للضحك ، ثم تابعوا عملهم و سعيهم بين الطاولات .

صورة

أعادته تلك الصورة خمسة عشر عاماً إلى الوراء ، كان ذلك في شهر آذار من عام 2005 ، تأمَّلها ملياً ، تأمَّل الفتاة الواقفة بجواره ، لاحظ فارق الطول بينهما ، لكن ذلك لم يمنع أن يترافقا طوال أسبوع من الزمن ، صباحاً و مساء ، في الجولات و الزيارات و الأمسيات التي كانا يتشاركان فيها ، يجلسان متجاورين ، من يراهما يظنهما أصدقاء و معارف منذ سنوات طويلة ، يتأمَّل الصورة و يندهش كيف كان تعارفهما سريعاً ، مفاجئاً ، و جميلاً .

التقيا مصادفة على الدرج الصاعد للطابق الثاني من المركز الإعلامي ، كان نازلاً و معه سائق السيارة المخصصة لتنقلاته ، و هو مواطن من الخرطوم ، أجرى عدة لقاءات سريعة مع بعض العاملين في المركز حول طبيعة عملهم و مواكبتهم للفعاليات و النشاطات التي ستجري طوال هذا الأسبوع ، نزل الدرج على عجل ، كانت هي تصعد الدرجات بهدوء و رويَّة ، ترتدي تنورة و سترة بيضاوِيَتَي اللون ، تضع على شعرها شالاً حريرياً أبيض يضفي على سمرتها جمالاً و جاذبية و سحراً ، تبادلا التحية الصباحية دون معرفة ، فهي عادة يتَّبعها الجميع هنا و لو لم يعرفوا بعضهم ، ردَّتْ التحية رافعةً بصرها إليه ، فقام السائق و عرَّفهما ببعض ، مدَّت يدها ، تصافحا ، فقالت بكلِّ عفويةٍ و بساطة :

ـ أنا أحبُّ البِيضَ كثيراً .. أتمنَّى لو أتزوَّج رجلاً أبيض .

قالت جملتها هكذا بكل براءة ، و تابعت صعودها للالتحاق بزملائها في المركز ، هو تابع نزوله خارجاً ليلحق بموعد المحاضرة الأولى في قاعة (الصداقة) ، لم تأخذ تلك الجملة وقعها الوجداني و العاطفي ، و صداها المعنوي في نفسه حينها ، و لكن حين جاء وقتُ استراحةِ الظهيرة ، استلقى على سريره في فندق (غراند هولیداي فيلَّا) ، أرسل بصره من النافذة إلى مياه النيل الأزرق الذي يجري قرب الفندق ، و راح يستحضر ما قالت ، تخيَّل كم سيكون هذا الأسبوع جميلاً و رائعاً بصحبة فتاةٍ سمراء تضجُّ أنوثةً ، و بذلك يصبحُ السفرُ أقلَّ وحشةً ، بل يصير مُغرياً و مُغوياً أيضاً ، قرَّر في نفسه أن يعودَ في اليوم التالي إلى المركز و يتعرَّفَ إليها أكثر .

*****

عاد لتأمُّل الصورة ، لِيتحسَّسَها ، ليتَحَسَّسَ ألوانَها كما يتحسَّسُ عاشقٌ وجهَ محبوبته بأنامله ، يقف كلاهما على رصيف الشارع ، يظهر خلفهما بناءٌ ضخمٌ ما يزال على الهيكل كانوا يسمونه مجمَّع الفاتح لأن ليبيا تموِّل بناءه ، علم فيما بعد أنه صار فندقاً

ضخماً يُدعى (كورنثيا الخرطوم) ، أشجار النخيل تنتصب بجذوعها المخروطية فارِدةً سُعفَها في الأرجاء ، و على الرصيف المقابل تجثم أشجارُ (اللبخ) العملاقة بارتفاعاتها الكبيرة و جذوعها الضخمة ، و أوراقها دائمة الخضرة ، و أغصانها التي تنفرش على مساحة كبيرة من الرصيف ناشرةً ظلها الكثيف ، تتميز بها شوارع الخرطوم ، خاصةً شارع النيل المحاذي للضفة الجنوبية لنهر النيل الأزرق ، حيث استمتع برؤيتها من نافذة غرفته في فندق غراند هوليدي فيلا ، اتخذ بعض النسوة من جذعها الضخم مكاناً لوضع أغراضهنَّ في تجهيز و بيع الشاي بالنعناع ، كأنها مقاهٍ بسيطةٌ يجلس الزبون في ظلها على عبوَّةٍ تنكيةٍ يحتسي كأسه سريعاً و يمضي إلى عمله ، و بذلك توفِّرُ تلك النسوة الفقيرات بعض النقود التي تساعدهنَّ في العيش ، تأمَّل وجه رفيقته بسمرتها الجميلة و ملامح وجهها العربية ، و ضفائر شعرها الأسود المجدول على الطريقة الإفريقية ، يداهما تتجاوران دون تماس ، شالها الحريري الأبيض يسترخي على كتفها لحظة التقاط الصورة ، لكنها عادةً تغطي به رأسها اتقاءً للحرِّ ، و التزاماً بالزِّيِّ الشرعيِّ المفروضِ على النساء في هذا البلد .

عاد بذاكرته إلى تلك الأيام ، حاول استحضارها بكل تفاصيلها ، حاول استعادة المشاعر و الانفعالات التي انتابته آنذاك بعد مضيِّ هذه السنوات الطويلة ، يذكر أنَّه وصل إلى الخرطوم الساعة الحادية عشرة و النصف ليلاً بعد ساعةٍ من التحليقِ في الجوِّ ، حين نزل من الطائرة داهمته نسمات ليلية دافئة تدل على أن النهار كان حاراً جداً ، نسماتٌ عابقةٌ برائحة الطوب المحروق ، علم فيما بعد أنَّ هذه الرائحة تنتشر من معامل القرميد و الحجارة الطينية المصنوعة من الغضار الأحمر ، حيث يشوونها في النار حتى تجفَّ ، و من ثم يستخدمونها في عمارة البيوت ، و قد اعتاد عليها سكان المدينة ، أنهى إجراءات الخروج من المطار ، توجَّه إلى الفندق حيث حجزوا له لمدة أسبوع ، هي مدة إقامته في هذه المدينة الإفريقية الحارة ، و قد تمَّ اختيار شهر آذار على أمل أن يكون الطقس فيه أقلَّ حرارةً من الشهور التالية حيث تصبح درجات الحرارة عاليةً جداً .

*****

صباح اليوم التالي توجَّه مبكراً إلى المركز ، وجد حجة معقولة بأن زيارة الأمس كانت سريعة و خاطفة ، رافقه مدير المركز بجولة في الصالة الكبيرة و عرفه إلى الموجودين مراسلي الصحف و الإذاعات ، لم تكن موجودة بينهم ، شعر بقليل من الخيبة ، دعاه لتناول شاي بالنعناع في مكتبه و هو عبارة عن غرفة زجاجية مقتطعة من الصالة الكبيرة بإمكان الجالس فيها رؤية أي شخص يدخل أو يخرج ، ارتشف الشاي الساخن مع أوراق النعناع الخضراء ، تجاذبا أطراف الحديث و عينه تراقب

مدخل الصالة بقلق ، لم تمض عشر دقائق حتى دخلت تتهادى كفراشة بيضاء ، ألقت التحية على زملائها ، و جلست على المكتب المخصص لها ، تمهَّل قليلاً في شرب الشاي ريثما تستقرُّ في جلستها ، رشف ما تبقَّى في الكأس ، ودَّع مضيفه مصرَّاً عليه ألا يخرج من غرفته لوداعه ، و تعمَّد المرورَ قربها ، ألقى التحية الصباحية ، التفتت نحوه ، كان وقع المفاجأة واضحاً على وجهها ، قال هامساً قاصداً التلميحَ إلى عبارة الأمس :

ـ الرجل الأبيض يحييك أيتها السمراء الفاتنة و قد جاء خصيصاً لأجلك ... ليراك .

ابتسمت ، دار بينهما حديثٌ قصيرٌ جداً كي لا يثيرَ انتباه الموجودين و فضولَهم ، تبادلا أرقام الموبايل على أمل التواصل و اللقاء , و هكذا كان .

*****

توطَّدتْ الألفةُ بينهما سريعاً ، كل يوم مساء بعد انتهاء الفعاليات و المحاضرات و الحفلات الفنية التي كان يحضرها جمهور من أهل الخرطوم ، كانا يبدأان برنامجهما الخاص ، هو يقترح زيارة مكان ما سمع أو قرأ عنه ، و أحياناً بل كثيراً هي التي تقترح عليه مكاناً ليتعرَّفَ إليه ، يذكر أنهما زارا سوق الناقة في أم درمان حيث المطاعم الشعبية التي تقدم لحم النوق مشوياً لزبائنها ، و بجواره أسواق قديمة مبنية من الطين ، أزقتها ترابية فيها بعض المحلات التي تبيع المشغولات الشعبية ، لفت نظره محلٌّ يبيع مشغولاتٍ للزينة من العاج و الفضة ، اشترى طقماً من أربع قطع ، خاتم و إسوارة و قرط و عقد من العاج و الفضة ، و قدمه لها هدية للذكرى ، رفضت بدايةً ، و لكن بعد إلحاحه قبلته ، ليبقى ذكرى لهذه الصداقة ، و كيلا تنساه كما قال ، ردَّتْ :

ـ لن أنساكَ أبداً .

تابعا تجوُّلهما في السوق الشعبي ، ميَّز رائحةً نفَّاذةً تخرجُ من بعض المحلات ، سألها عنها ، فقالت باستحياء هذه تسمى (الدُّلكَة) و هي مادةٌ تستعملها النساء في السودان بكثرة ، و خاصةً العرائس منهنَّ في ليلة (الدَّخلة) .

*****

ذات مساء كانا مدعوين لعشاءٍ و حفلٍ فنيٍّ ساهرٍ في حدائق منتزه المَقْرَن العائلي الذي يطلُّ على المنطقة التي يلتقي فيها النيلان الأبيضُ و الأزرقُ ، لن ينسى تلك الأمسية ، هكذا شعر حينها ، و لكن الأيام و المشاغل أنسته إياها ، الصورة الآن تعيد تلك الذكرى ، كان طعام العشاء لذيذاً ، و النسمات الباردة القادمة من مياه النيل

تنعش النفس ، و تحيي فيها المشاعر الرومانسية و العاطفية ، رُفعت موائدُ الطعام ، وضعوا الفواكه و الحلوى و بعضَ المشروبات و العصائر ، و جاء دور الموسيقا السودانية الشعبية و الرقص ، الجميع شارك ، منْ يعرفُ و منْ لا يعرفُ ، رقصوا معاً حتى تعبوا ، حتى انتصف الليل ، انتهت السهرة ، كان لا بدَّ من إيصالها إلى منزلها ، حاولت ثنيه كثيراً عن ذلك ، قالت إنه لا داعيَ لتعذيبه ، و أنها ستأخذ أيَّ سيارةِ أجرةٍ لتوصِلَها ، لكنه لم يقبل تركها في الليل وحيدةً ، انطلقت بهما السيارة في شوارع الخرطوم الفارغة ، اتجها صوب الجنوب ، دخلا في الحارات الشعبية الفقيرة ، حينها علم لماذا لم تكن تريده أن يوصلَها ، حتى لا يرى مكان سكنها ، و يعرف أنها من أسرةٍ بسيطةٍ تسكن حياً شعبياً بسيطاً .

صباح اليوم التالي التقيا ، لم يترك لها أيَّ وقتٍ للشعور بالحرج أو الخجل أو الارتباك ، بادرها بالحديث عن جمال سهرة الأمس ، و جمال السير في شوارع الخرطوم ليلاً ، و شكرها لأنها أتاحت لي فرصةَ التعرُّف إلى الأحياء الشعبية فيها ، شغلها بالأحاديث الكثيرة حتى عادت إلى سجيَّتِها ، و عاد جوُّ الألفة بينهما كما كان .

*****

الآن و هو ينظر إلى هذه الصورة ، و هي الشيء الوحيد الباقي من تلك العلاقة ، يتأمَّلها ، يشعر بالحزن العميق ، صحيحٌ أنَّ سنواتٍ كثيرةً مضت ، خمس عشرة سنةً ، و لكنْ ما يحزُّ في نفسي هو ذاك اللقاءُ الأخيرُ ، لقاءُ الوداع .

نظموا جولة نهرية بالعبَّارات في فترة ما بعد العصر ، لتبحرَ في رحلةٍ نهريةٍ ما بين النيلين الأزرق و الأبيض ، و حول جزيرة فروتي التي تتوسط النيل الأزرق ، كان موعد إقلاع طائرة العودة إلى دمشق الساعة الثانية عشرة منتصف الليل بتوقيت الخرطوم ، انتهت الرحلة ، نزلوا من العبارة ، و بدأ البعض يلهو بالمياه الضحلة قليلة العمق على ضفة النهر ، انتحتْ جانباً بعيداً عن الجميع ، انتقتْ صخرةً جلستْ عليها ، و شردتْ بفكرها بعيداً ، اقتربَ منها ، سألها :

ـ ما بك ؟

تجنبت النظر إليه ، كان وجهُها حزيناً ، و بوادر الدمع تلمع في مآقيها ، قال :

ـ لا تحزني ، لقد أمضينا أياماً جميلة و رائعة ، فلا تختميها بالحزن و البكاء .

صمتتْ و لم تجبْ ، تظاهرتْ بالضحك للتغلُّب على حزن الموقف ، يشعر الآن كم كان ضحكه قاسياً و فظاً و غبياً ، قال لها :

ـ امسحي دموعك ، أقسم لك إننا سنلتقي ، ثمَّ سألها : هل زرتِ دمشق ؟

ـ لا .

ـ حسناً ... قريباً سأتصل بك و أدعوك لزيارة دمشق ، و هناك سأجعلك تنسين الخرطوم و حرارتها ، و تستمتعين بأجواء دمشق و جمالها و حاراتها القديمة و الجامع الأموي ، و بردى و الغوطة ، عدَّدَ لها كلَّ جميلٍ في دمشق ، و أضاف : كلُّ ذلك سيكون على حسابي لن تتحمَّلي أيَّ نفقات ، هذا كرمى لك يا فاتنتي . تأملته بهدوء ، مسحتْ دمعتين معلقتين على جفنيها و قالت :

ـ حقاً ؟ حقاً سنلتقي مرةً أخرى ؟ أم أنه كلامٌ للمواساة في لحظة الوداع .

أكد لها أنَّ لقاءهما حتميٌّ ، و لكن لم يلتقيا بعد ذلك ، مضت السنون ، لم يتواصلا أبداً ، ضاع منه رقمها ، بحث عنه كثيراً بين أمتعته و أوراقه ، و لكن .. عبثاً ، حاول الاتصالَ ببعض الأرقام الموجودة على بعض الكتيّبات و المنشورات التي أحضرها معه ، لكنه لم يصل إلى أيِّ دليلٍ أو سبيلٍ للتواصل معها .

الآن حصلتْ متغيّراتٌ كثيرة غيَّرت وجه السودان ، تظاهرات شعبية و نسائية تطالب بالتغيير ، كان يتابع شاشات التلفزة التي تنقل تلك التظاهرات ، يدقق النظر فيها ، في التظاهرات النسائية خاصة ، على أمل أن يلمح وجهها أو وجهاً شبيهاً بها بين الحشود الكبيرة ، و لكن ... لا شيء .

يتساءل بينه و بين نفسه : ترى ما الذي جرى معها ؟ أين أصبحت ؟ هل ما زالت حية أم ... ؟ كيف سارت بها الحياة ؟ كيف أخذتها بدروبها الصعبة و الشائكة ؟ بمشاغلها و متاعبها ؟ و ذاك الطقم العاجي الممزوج بالفضة هل ما زال معها يذكِّرها بتلك الأيام و الأمسيات التي أمضياها معاً ؟

الصورة بين يديه يتأمَّلها بشعورٍ من الحزن و الألم و الأسى .

هلوســـة

" تفضَّل اعطيني هالقرعة الفارغة حتى جِزّلك هالشعرات " التفت إليه مستنكراً ما تفوَّه به و سألته بحدة :

ـ عفواً ماذا قلت ؟

أجابني بهدوء :

ـ قلت لكم تفضلوا إلى الكرسي أستاذ ، فقد انتهيت من الزبون السابق ، و خرج ، و لم تنتبهوا ، يبدو أنك شارد أستاذ ، خيراً بما أنت شارد ؟

حاولت أن أكون هادئاً و طبيعياً بعد التوتر السابق الحاد و المفاجئ و قلت :

ـ آه .. شكراً .. لا شيء .. لا شيء .

قمت عن كرسي الانتظار و جلست على كرسي الحلاقة . بدأ الحلاق يضع لفافة ورقية حول رقبتي لمنع الشعر المقصوص من التسلل إلى ظهري و صدري ، ثم قام بفرد بشكير كبير أحاط بصدري و كتفي ، بينا أنا أتأمل القوارير العلب الموضوعة على رف أمام المرآة ، قوارير عطور منوعة ، و علب بودرة و شفرات حلاقة و غيرها من لوازم المهنة .

" شو رأيك أحلقلك عالزيرو ؟ هيك أفضل منشان القمل و كمان بتطول حتى تحلق مرة تانية ؟ "

ماذا أسمع ؟ ماذا يجري ؟ هل فقد هذا الحلاق عقله حتى يتحدث معي هكذا ؟ نظرت إليه عبر المرآة أمامي ، و عادت ملامح الاستنكار الغضب تجتاح وجهي أكثر حدةً و شدةً من السابق ، شعرت أن نظراتي قادرة على تحطيم زجاج المرآة بلحظة ثاقبة ، و كدت أنفجر بوجه هذا الحلاق الوقح الذي يتكلم بهذه اللهجة الخالية من أي احترام ، كنت أفكر أي كلمات شرسة سأقذفها في خلقته النكراء ليتعلم كيف يحدث الناس ، رأى علامات الدهشة و الاستغراب على وجهي فقال :

ـ عفواً أستاذ كيف تريد أن أحلق لك بالماكينة أم بالمقص ؟ و هل تريد حلاقة ذقنك و تنظيف وجهك ؟

تراجعت ... أطلقت زفيراً طويلاً كقطار عجوز ، و انتابتني الحيرة ، كيف أتصرف ؟ ماذا أفعل ؟ فأنا لا أريد أن أزجَّ بنفسي في موقف غير لائق ، ما أسمعه من كلامٍ يُخرجني عن طَوري ، لكنْ بالمقابل ملامحُ وجه الحلاق لا تنم عن السخرية أو

الاستهزاء ، بل يتحدث بمنتهى اللطف و الجدية ، هل أنا أتوهم و أتخيل أصواتاً لا وجودَ لها ، هل أعاني من حالة فصام مازالت في بدايتها ؟ لم أعد قادراً على التمييز ، لكنني فعلاً أسمع أصواتاً ، أصواتٌ تمزق طبلة أذني ، حيناً تكون بعيدةً ، و أحياناً تكون قريبة جداً ، أخال من يطلقها كأنه يصرخ في صيوان أذني ، أجبته مقلِّداً هدوءه و بحسم :

ـ لا .. حلاقة فقط بالمقص و تخفيف الشعر على جوانب الرأس ، فهو كما ترى طويل ، أما الذقن فقد اعتدت على حلاقتها في البيت ، و لم يسبق لي نتف شعر بشرة الوجه ، فلا حاجة لذلك .

بدأ يبلل الشعر بالماء و قد تناول المقص و أخذ يشذب الشعر ، رأسي خالٍ من الشعر إلا على الجوانب و الخلف ، و عادة لا تأخذ الحلاقة وقتاً طويلاً ، دقائق و ينهي الحلاق مهمته .

الجو خارج صالون الحلاقة بارد ، و الهواء قوي تتطاير منه أوراق الأشجار و غيرها من الأشياء المتناثرة على الطريق، لكن جو الصالون دافئ ، و المذياع يبث أغنية حديثة لمطرب جديد لا أعرفه ، استرخيت على الكرسي المريح ، و بدأت تأخذني الأفكار ، فكرت في حالتي كثيراً ، الأصوات التي تتناهى إلى سمعي بدأت بالزيادة في الآونة الأخيرة ، أصوات لأحداث و مواقف و شخصيات من الماضي ، كنت قد نسيتها تماماً ، لكنها الآن صارت تحضر في ذاكرتي كثيراً ، تشوش عليَّ حواري مع أصدقائي و زملائي ، كنت أحياناً أجيب عن سؤالٍ أكتشفُ أنْ لا أحدَ سألني ، أو أعلق على أمرٍ لم يطرحه أحدٌ للنقاش ، أو أنفعل و أقوم بحركاتٍ لا مبرر لها ، مما يجعل مَن حولي يتفاجأ ، حتى حين أكون وحيداً تتناهى إلى سمعي أصوات من ماضي حياتي ، لم يعد ينقصني إلا أن أرى أصحاب تلك الأصوات و أتخيلها أمامي ، تذكرت أن زوجتي حين رأتني أتهيَّأ للخروج ، لم تكن ترغب بخروجي من المنزل ، و قد حاولت منعي من ذلك تحت حججٍ كثيرة لم تقنعني واحدةٌ منها ، حتى الأولاد وقفوا بصف أمهم ، يريدون أن أبقى في البيت ، لماذا ؟ لا أدري . الحلاق يطوف حولي ذات اليمين و ذات الشمال يطقطق بمقصه ، و أنا أطوف بين تلك الأفكار و الهواجس ، و بين الحين و الآخر يرش الحلاق قليلاً من رذاذ الماء البارد فأنتفض و أصحو و أعود إلى واقعي الحاضر .

" اسقالله أيام كنت تقعد على كرسي الخشب و عمَّك عزيز الحلاق يجزلَّك شعراتك متل الخروف ، عزيز ؟ ما عرفتو ؟ الحلاق الجوَّال بين القرى و المزارع عالبسكليت ، حامل عدتو معو و داير من بيت لبيت ، و من حارة لحارة ، يعني حلاق عالماشي ، شو نسيت يا!!!؟ "

نترت رأسي من بين أصابعه و شفرتَي مِقصِّه ، وجَّهتُ إليه نظراتٍ خارقةً حارقةً ، و لو كان بمستطاعي نسفه عن وجه الأرض لفعلت ، تفاجأ الرجل و بدا عليه الاستغراب و الإرباك و القلق ، و قبل أن أنفجر في وجهه حانقاً و غاضباً قال :

ـ نَعِماً أستاذ .. إن شاء الله ألف نَعِماً ، هل تريد رشة عطر ؟ الله يعطِّرك بأنوار النبي ؟

هدأتْ أعصابي ، و سكنتْ عضلاتي ، و عاد قلبي إلى دقاته المعتادة ، و حمدت الله أن الحلاق تكلم فوراً قبل أن أرتكب فعلاً مشيناً ، رقَّتْ نظراتي ، و شكرتُ الحلاق ثم قمتُ عن الكرسي مرتبكاً قليلاً ، مددتُ يدي إلى جيبي لأخرج النقود و أعطيه أجرته ، بينما الأفكار تدور في رأسي الحليق حديثاً ، تتقلب فيه كتقلب شعراتي على أرضية المحل ، تتطاير كأوراق الأشجار بفعل الريح ، خرجت من دفء المحل إلى برودة الشارع متعباً مكدود الذهن ، معترفاً بأن الوقت قد حان ، و لا مجال للتأخير أكثر من ذلك ، حتى لا أقع في أمرٍ خارجَ الحسبان ، لا بدَّ من زيارة الطبيب النفسي فحالتي لم تعد تُحتمل ، و المكابرة و عدم الإقرار بحقيقة وضعي لم تعد مجديةً ، و زوجتي و الأولاد معهم حق في إبقائي بالمنزل .

القبو

كان يدعوني بحماسة و حرارة لمرافقته إلى القبو ، هناك سأجد أشياء جميلة ، و ربما أجد طلبي ، كان ملحاحاً ، ردَّد كلَّ عباراتِ و جُمَلِ الترحيبِ و الاحتفاءِ و الاستقبال ، لا بل مدَّ يدَه و أمسكَ بزندي ليصطحبني إلى القبو ، تردَّدتُ قليلاً ، حاولتُ التملُّصَ و التخلُّصَ من إلحاحِه ، تلفتُّ حولي ، نظرتُ الى الناس تسيرُ في الشارع المزدحم ، كلُّ واحدٍ منهم مُستغرقٌ بما يشغل باله ، يتأمَّلون واجهاتِ المحلات و ما يُعرض فيها ، لا أحدَ يهتمُّ بمأزقي مع هذا المِلحاح ، بحثتُ عن وجهٍ ربما أعرفه ... أتعرَّفُ إليه، أتذرَّعُ بالاهتمامِ به ، و أنصرفُ معه بحجةٍ ما ، و أتخلِّص من هذا الشابِّ الثقيل الملحاح الذي يدعوني لمرافقته إلى محلِّه هناكَ في القبو ... و لكنْ عبثاً .. لا أحد ، صوتُه يقيّدني بقيودٍ فولاذية لا يراها أحدٌ سوايَ و هو يُعيد : المحلُّ هناك قريبٌ جداً في القبو ، ستجدُ فيهِ أشياءَ جميلةً ، و بالتأكيد – كما قال كثيراً - ستجدُ طلبَكَ .

رافقته لمسافة مئة متر، هو أمامي و أنا خلفه، كأنه يجرُّني جرَّاً ، فقد أحرجني إلحاحه و لم أتمكن من التخلُّص من دعوته المتحمسة ، رغم أنني اتخذت قراراً بداخلي بأن أتظاهر أنَّ شيئاً لم يعجبني ، و بالتالي لم أجد طلبي .

وصلنا باب البناية في زقاق خلف الشارع الرئيسي ، أمام المدخل دعاني قائلاً :

ـ تفضل أستاذ .. تفضل .. لقد وصلنا ها هو المحل في القبو ستجد فيه كل ما تريد .

تلكَّأتُ قليلاً ، خطوتُ خطوةً حذِرةً ، رأيتُ أمامي درجاً نازلاً إضاءته خافتة ، الشاب خلفي ما يزال يردد و يُعيد عباراتِ الترحيب بحماسةٍ تزداد مع كلِّ خطوةٍ أخطوها و دَرَجةٍ أنزلها باتجاه القبو .

نزلتُ الدرجة الأولى .. الثانية .. الثالثة ، توقفتُ ، كان الشاب خلفي و قد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ عريضة ، التقتْ عيونُنا .. ازدادتْ ابتسامتُه و دعْوَتُه لي لمتابعةِ النزول ، حينها ... فجأةً لمعتْ في رأسي ذكرى .. ذكرى تعودُ لأكثرَ من أربعين عاماً مضتْ ، كنتُ ظننتُ أنني نسيتُها ، امَّحتْ من ذاكرتي ، تلاشتْ .. لكنَّها الآن برزتْ بكلِّ أبعادِها و تفاصيلِها و انفعالاتِها ، لتجتاحَ رأسي و عقلي و بصري .

*****

كنتُ في العاشرة من عمري، كان أبي يسافر إلى لبنان مع مجموعةٍ من رجالِ حيّنا الفقير للعملِ هناك ، عُمَّالَ بِناءٍ، حراسَ مبانٍ ،عمَّالَ مياومةٍ في المعامل و المصانع ... في كل شيء ، يُمضون شهراً من العملِ المتواصل ثم يعودون إلى أُسَرِهم بما

حصَّلوا من مالٍ قليلٍ ليُنفقوه ، و حين يقاربُ على النَّفاد يعاودون السفرَ مرةً أخرى .

كانتْ الأيامُ القليلةُ التي يُمضيها أبي بيننا من أجملِ الأيام ، يظلُّ في البيت طوالَ النهار تعويضاً عن غيابه الطويل ، يبدو عليه السرورُ و الانشراحُ ، يزدادُ مُزاحُه ، و تَقبُّلُهُ لكلِّ الإزعاجات التي نسبِّبها له ، في المساء يتجمَّعُ الرجالُ في منزلِ أحدِهم للسَّمرِ و السهرِ، و يبدؤون بسردِ حكاياتهم و ذكرياتهم عن مدينة بيروت ، و ما جرى لهم فيها، و كيف كانوا يُمضون نهاراتِهم و أمسياتِهم و لياليهم ، كانتْ بيروتُ تتراءى لي أنا الطفل الصغير، و من خلالِ أحاديثهم عنها ،مدينةَ الحلمِ و الأملِ و السَّعادة ، المدينة التي أجدُ فيها كلَّ ما أريد ، ثم بدأت أحاديثهم عنها تتغير ، بعد أن بدأتْ فيها الحربُ و صاروا يتخوَّفون من السفر إليها، لكنَّ الفقرَ و الحاجةَ يُجبرانهم على ذلك ، صاروا يتحدثون عن الرصاص و الموت اللذَين يتجوَّلان بكلِّ حريةٍ في أحيائها و شوارعها ، و كيف انقسم أهلُ تلك المدينة الوادعة إلى طوائفَ متقاتلةٍ متحاربةٍ ، يصطادُ بعضُهم بعضاً، فتحوَّلتْ في ذهني من مدينةٍ للحلمِ و الأملِ، إلى مدينةٍ للخوف و الرعب و الموت ، قال أبي في إحدى الأمسيات :

ـ في آخر سفرةٍ لم أوفَّق بالعثورِ على عملٍ فوراً، لذلك قررتُ ذاتَ يومٍ أن أتجوَّلَ في شوارعِ المدينة بحثاً عن عملٍ ما ، التقيتُ رجلاً في الأربعينات من عمره، سألتُه إن كان يعرفُ أحداً يحتاجُ لعاملٍ لديه ، نظر إليَّ ملياً و كأنه يتفحَّصُني ، سألني عدة أسئلةٍ ، مِن أين جئتُ ؟ و مِن أيِّ بلدةٍ ؟ و كيف وصلتُ إلى هنا ؟ ثم قال : نعمْ أعرفُ محلاً يريد عمالاً ، و يدفعُ أجراً مُجزياً ، دعاني لاصطحابه ، مرَّتْ عشرُ دقائق و هو يحدثني عن العمل الجديد، و أنه مريحٌ و فيه دخلٌ ماديٌّ جيّدٌ و يُناسبني كما قال. دخلنا في زقاقٍ فرعيٍّ بدا مُعتماً قليلاً رغم أننا كنَّا في وضَحِ النَّهارِ، توقَّف أمامَ بناءٍ من أربعةِ طوابق ، وقفَ بجانبِ المدخلِ و دعاني للدخولِ قبلَه ، أشار بيدِه إلى درجٍ ينزلُ إلى أسفلِ البناء بانحدارٍ شديد ، بالكاد يَرى المرءُ أمامَه لمسافة متر ، الرجلُ يدعوني بحماسةٍ لمتابعة النزول، و أنا متردِّدٌ، بدأتُ أشعرُ بالخوف ، قال أبي ، فبدأ الخوفُ يتسرَّبُ إلينا – نحن السامعين – تابع قائلاً :

ـ سمعتُ كثيراً عن رجال اختفوا في الآونة الأخيرة بعد أن بدأت الحربُ في المدينة ، و لم يعرف أحدٌ شيئاً عن مصيرهم ، كنا نحذِّر بعضَنا من الوقوعِ بأيدي رجال تلك العصابات ، فكَّرتُ للحظةٍ، تُرى هل وقعتُ بين يدَي رجلٍ عصابةٍ من أولئك القتلةِ الذين يستدرجون الرجالَ الى أوكارهم لقتلهم ؟ ثم لماذا سألني من أين جئتُ و من أيِّ بلدٍ ؟ الرجلُ خلفي يدعوني للنزول ، الأفكارُ و الهواجسُ تغلي في رأسي ، توقفتُ قليلاً ، خطرتْ ببالي فكرةٌ جهنميةٌ هي خلاصي الوحيد قبلَ أن أتمادى في

النزول ، تنحَّيتُ جانباً، التصقتُ بالجدار، رجوتُ الرجلَ أن ينزلَ قبلي لأنني لا أرى جيداً و هو يعرفُ المكان، رمقني بعينيه ، شعرتُ أن شعاعاً ناريَّاً يخرجُ منهما و يخترقُ جمجمتي ، تردَّد قليلاً ، أظهرتُ له كلَّ الاطمئنانِ و البلاهةِ أيضاً حتى لا يشكَّ بي ، صار بجانبي تماماً .. تجاوزني ... نزل درجةً .. تبِعتُه ... درجةً أخرى .. تبعتُه ... درجةً ثالثة.... كانت أنفاسُنا و نحن نتحلَّقُ حولَه و عيونُنا مشدودةٌ إليه، إلى ملامحِه، أعصابُنا مربوطةٌ بكلِّ كلمةٍ يقولها ، بكلِّ حرفٍ يخرجُ من فمِه ، قلوبُنا تنبضُ بسرعةٍ، و أنفاسُنا تلهثُ في صدورِنا ، هنا زادتْ نبرةُ حديثِ أبي ارتفاعاً ، و تابعَ قائلاً :

ـ بكلِّ سرعةٍ و بشكلٍ مفاجئٍ و هو يسبقني بدرجتين دفعتُه ليتدحرجَ على الدرجِ الشديدِ الانحدار، قفزتُ عائداً باتجاه مخرجِ البناء ، و أخذتُ أركضُ في الشوارعِ من حلاوةِ الروحِ كما يُقال ، ركضتُ و ركضتُ و ركضتُ حتى ابتعدتُ عن المكان و اختفيتُ بين الأزقةِ و الشوارعِ، فلا يلحقُ بي ذاك الرجلُ ذو النظرةِ الناريةِ.

حين قصصتُ على رفاقي ما جرى لي هنَّأوني بالسلامةِ و قالوا : انكتبَ لكَ عمرٌ جديدٌ .. "عمرُ الشَّقي بَقِي" لو أنكَ نزلتَ معه الى القبو لكنتَ في عِدادِ الأمواتِ الآن، و تلك المنطقةُ من المدينة باتتْ خطَّ تماسٍ بين المنطقتين : الغربية و الشرقية ، فاحمدْ ربَّك أنكَ ما زلت حيَّاً.

تنفَّسنا الصُّعَداءَ، و ردَّد الجالسون قائلين : الحمدُ لله على سلامتك، أنا الصغيرُ كنتُ أستمع لما يقول و أشعرُ بالرعبِ من كلِّ كلمةٍ يقولها ، شعرتُ أنَّ ذلك جرى معي و تخيَّلتُ لو أنني فقدتُ أبي ماذا سيحصلُ لنا ؟ نحن الأسرةَ الفقيرةَ ؟ أيُّ فقرٍ و يُتمٍ و تشرُّدٍ سيلحقُ بنا ؟ لكنْ الحمدُ لله هو بينَنا الآن ، حيٌّ يُرزقُ ، اقتربتُ من أبي ، التصقتُ به، شعرتُ بحرارةِ جسدِه، وضعتُ يدي على يدِه و كأنني أقول له : لا تترُكنا بعدَ الآن ، لا تسافرْ مرةً أخرى ، نحن لا نستطيعُ العيشَ دونَك ، فقد نجوتَ هذه المرة و ربما لا تنجو في المرةِ القادمة، أرجوكَ لا تسافرْ. كلُّ هذا الكلام كان يتردَّدُ في خاطري و في نظراتي المتوسِّلةِ دونَ أن ألفظَه ، حركاتُ جسدي و التصاقي بأبي كانا يقولان ذلك و أكثر .

*****

الآن و أنا على رأس الدرج المنحدر إلى القبو ، الشابُ خلفي يستحثُّني على النزولِ بحماسةٍ، فهناك سأجدُ أشياءَ جميلةً و ربما أجد طلبي ، الذكرى تحضرُ في رأسي بقوةٍ ، كلماتُ أبي تنحفرُ في عقلي ، دقاتُ قلبي تزداد ... نفَسِي يضطربُ .. ماذا أفعل؟ أأدعوهُ للنزولِ قبلي ؟ كما فعلَ أبي أم .... أم ماذا؟ لم أعدْ أعرفُ ما أفعلُ؟ و

ماذا أريدُ؟ و لماذا جئتُ؟ و أيُّ مصيرٍ ينتظرني ؟ و لأجلِ أيّ غرضٍ جئتُ إلى هذا السوق ؟ و إلى هذا المكان ؟ إلى هذا القبو، و كيف التقيتُ بهذا الشابِّ المتحمِّسِ و المندفعِ و هو يدعوني للنزول إلى القبو الى حيث سأجدُ أشياءَ جميلةً، و ربما أجدُ طلبي ؟ أو ربما يجِدُ هو و مَن معه طلَبَهم .

قيامة

إما أنني مجنون، أو أن هذه المدينة أصابها الهوس و الجنون، و أدركتها لوثة عقلية قلبت عاليها سافلها ، أو أننا نحن – الاثنين- مجانين، حتى يحدث فيها ما يتجسَّد أمام ناظريَّ الآن.

كنت أتمشى كعادتي في شوارعها و أزقتها، و هي ليست عادة جديدة أو طارئة عليَّ، فقد أدمنت السير و التأمل في كل ما يحيط بي من بشرٍ عابرين، بناياتٍ حديثة، بيوتٍ طينيةٍ متهالكةٍ تصارع الزمن حتى لا تتداعى على رؤوس ساكنيها، أشجارٍ هرمةٍ عاريةٍ تتكئ على جدران البيوت، ترفع أغصانها ضارعةً نحو السماء.

أتسكع و أتأمل كل ما يحيط بي، فتتناسل الأفكار في رأسي و تتوالد حتى تملأ الفراغ الذي يشغله، حفظت لوحاتِ الإعلانات التجارية، أسماءَ المحال و المتاجر، أوراقَ الدعايات الانتخابية التي انتهت مناسبتها، لكنها لم تزل جاثمةً على الجدران، أوراقَ النعوات، و خليطاً عجيباً غريباً من االملصقات على الجدران بعشوائية عبثية، يبدو أنه لا سبيل للخلاص منها، لكن هذه المرة كانت المفاجأة مرعبة، ما جعلني أشعر بالدوار، و ما جعل الشك بقدراتي و عقلي يتعاظم، هل حقاً ما أراه أمام ناظري؟ هل يعقل ذلك؟ هل أنا في حالة يقظةٍ أم في حلمٍ و غيبوبة؟ فما جرى و أراه غير معقول و غير مقبول بأيِّ شكلٍ من الأشكال، و لم يكن يَخطُر على بال، لذلك أتوقف بين الفينة و الأخرى، و أردِّد بيني و بين نفسي : إما أنا مجنون أو هذه المدينة أصابها الجنون، أو كلانا معاً.

كنت أحاول عبور الشارع من جانبٍ إلى الجانب الآخر، فجأةً انقطعت الكهرباء و حلَّ الظلام الدامس، و لولم يكن الفصل صيفاً و القمر يضيء السماء بنوره الفضي، لكنت عاجزاً عن الرؤية تماماً، و مع هذا الظلام المباغت تحوَّل كلُّ شيء، البنايات تحولت الى بيوت طينية، و قباب و مآذن، الشوارع صارت دروباً ترابية معفرة، السيارات انمسخت إلى عربات تجرها الحمير و البغال، السوبرماركات صارت دكاكين متواضعة بسيطة، يشغلها باعة يرتدون أزياء قديمة بالية انقرضت منذ قرون، إن قيامةً ما حلَّت في هذه المدينة فجأة، و تلك الأوراق الملصقة على الجدران حال لونها الى الاصفرار و القدم، و باتت أشبه بأوراق المخطوطات القديمة، و صارت مهمتها نقيضة لما كانت عليه، و بدل النعي حلَّ الإعلانُ عن المواليد الجدد الذي بُعِثوا في هذه المدينة، و أيُّ مواليد؟ لن تصدقوني إذا قلتُ لكم، لأنني أنا نفسي لا أصدق كلَّ ما أراه، إليكم نماذج مما هو مكتوبٌ على تلك الأوراق:

- جاء إلى الحياة بإذن الله تعالى و إرادته و قضائه و قدره المرجو له الحياة السعيدة " عبد الرحمن بن محمد بن خلدون أبو زيد وليّ الدين الحضرمي الإشبيليّ" فهنيئاً لأهله و ذويه و محبيه و جيرانه.

- بكلِّ الهناء و السرور و البهجة، استقبل آلُ الغزالي في هذا الحي و جيرانُهم و أنسباؤهم و مُحِبُّوهم في الحارات المجاورة، المباركَ بإذن الله تعالى " أبا حامد محمد الغزالي الطوسي النيسابوري " على أمل الحياة المديدة و الرغيدة.

- جاءت البشرى بقدوم المولود على أملِ الحياة الهانئة الرضية " امرؤ القيس حُندُج بن حِجْر الكِندي" الذي تبدو في عينيه علاماتُ الذكاءِ و النَّجابةِ و الإبداع، كما تنبأتْ له الداية أم محمود الجاهلية التي حملت البُشرى به إلى والديه و جيرانه و أهلِ حارتِه، بإذن الله تعالى.

هكذا في كلِّ الأوراق على كلِّ الجدران، لم يتبقَّ اسمٌ من أسماء الشخصيات الأدبية و الدينية و الاجتماعية التي درستُها في كتبِ التاريخ إلا و بُعثتْ إلى الحياة في هذه المدينة ، إنه أمرٌ يدعو للدهشةِ و الجنون، و عقلي غيرُ قادرٍ على تفسيرِ ما أراه، صحيحٌ أنني قرأتُ عن أصحابِ هذا الأسماء في كتبِ المدارس، حين كانتْ أضواءُ الكهرباءِ تشعشعُ في الأرجاء قبل حلول هذا الظلام المفاجئ، كما تردَّدَ اسمُ بعضِها في خُطبِ الجمعة على منابر المساجد، و أسماءٌ أخرى كانوا يكتبون عنها الكتبَ و المقالاتِ الصحفية، و يتحدثون عنها في البرامج الاذاعية و التلفزيونية، و تُعقَدُ حولَها الندواتُ و الأمسياتُ في المنتدياتِ و المراكزِ الثقافية، و يدور جدل حول قيمتها و أهميتها و خلودها أبد الدهر، و أنَّ ما قدمته من فكر و علم و شرائع يعجز عن تقديمِ مثلِهِ أهلُ هذا الزمان، كلُّ ذلك سمعتُه، و قرأتُ عنه ، و لكنْ أن يُبعثوا من جديد فهذا ما لا أستطيع تخيُّلَه، تابعتُ سيري و تأملي لأسماء المواليد الجدد، الذين جاؤوا من بطن التاريخ ليحتلوا حياتنا و مدينتنا و رؤوسنا، حتى صرتُ على مشارف الجنون، أسأل نفسي: تُرى هل أنا حيٌّ حقاً؟ أم أنني ميتٌ و هم الأحياءُ فيَّ و في غيري من بقية سكان هذه المدينة؟ خارتْ قوايَ لم أعُدْ قادراً على استكمال المسير، زاغ بصري، شعرتُ أن شيئاً في داخلي يتداعى، أكاد أسمعُ صوتَه، بحثتُ بيديَّ كالأعمى عن شيءٍ أستندُ إليه، عبثاً.. كلُّ شيءٍ يهربُ من أمامي، التفَّ حولي ظلامٌ دامسٌ، حتى القمرُ الذي كان في وسطِ السماء غاب، الأرضُ تتشقق تحت قدميَّ، رجلاي تغوصان في أخدودٍ ظهرَ فجأةً أمامي يمتدُّ إلى ما لا نهاية، يتوسَّعُ و يتمدَّدُ مُبتلِعاً كلَّ شيءٍ .. كلَّ شيء.

هروب

لا أريد أن أبقى وحيداً، كان هذا الأمر هاجسي في الفترة الأخيرة، لذلك كنت أتعمد الخروج من المنزل، من العمل، و من نفسي لو استطعت، أريد أن أهرب من أي حالة تجعلني وحيداً، و بالتالي تعيدني للتفكير في ذلك الموضوع.

كنت أخرج و أتجول في الشوارع، أرتاد المقاهي، أتناول الفول باللبن في " القيمرية" ، أتأمل باب الجامع الأموي الشرقي و استغرق في التفكير بكيفية صنعه، أتشمم رائحة التوابل و البهارات في سوق العطارين، أدخل الى "خان أسعد باشا" و أغرق في اللوحات الفنية المعروضة في معرضٍ فنيٍّ لا أعرف صاحبه، ثم أحتسي كأساً من الشاي على طاولة يصلها رذاذ الماء من البحرة التي تتوسط المكان .

أخرج هائماً على وجهي في شوارع دمشق من "مدحت باشا" الى "باب الجابية" إلى "المرجة" ، أستريح قليلاً في حديقة "المنشية" و أسرِّح نظري نحو "التكية السليمانية" بمآذنها و قبابها، ثم أعاود السير حتى نهاية شارع "الصالحية"، أحدق في واجهات المحلات التي تعرض جميع أنواع الألبسة، أبدِّد وقتي في إمعان النظر فيها، أتذكر كيف كان هذا السوق أيام الجمعة في ثمانينات القرن الماضي، كان مكتبة عامرة بكل أنواع الكتب المفروشة على الرصيف، حيث يتمكن باعتها من فرشها أمام المحلات المغلقة، حينها كنت طالباً في الجامعة، و كثيراً ما كنت أشتري من "بالة" الكتب هذه، و قد اقتنيت أهم المراجع و الروايات و الدواوين من رصيف هذا الشارع، لقد مرَّ الزمن سريعاً، حوالي أربعة عقود، خلالها صار الناس غير الناس و الأحوال غير الأحوال لكن هذا السوق بقي على حاله، لا جديد عمرانياً فيه، و كأنه عصيٌّ على التغيير.

اصطدمت بعامود كهرباء يتوسط الرصيف، تنبهت إلى شرودي العميق في ذكريات الماضي، تلفتُّ حولي لأرى إن كان هناك من رآني أصطدم بعامود الكهرباء و يسخر مني، و لكن لا أحد، الأشخاص كُثُرٌ و لكنَّ كلَّ واحدٍ منهم مشغولٌ بهمِّه، و لا يرى سواه.

عدَّلتُ من أمري و تابعت سيري، على تقاطع شارة المرور رأيت مقهى الروضة، خطرت ببالي فكرة أن أجلس في مكاني المعتاد على زاوية الواجهة الزجاجية المطلة على الشارع حيث بإمكاني تأمل الناس و هم يعبرون، كانت الطاولة مشغولة بمجموعة من الشباب يلعبون الورق و يدخنون النراجيل، و تعلوا أصواتهم صخباً ما بين طرنيب الكوبَّا و الديناري و "أص" السباتي ... جمعت أفكاري و هواجسي و لملمت ما تبقى مني و تابعت سيري حتى وصلت ساحة " السبع بحرات" ... وقفت

محتاراً أمام تفرعات الطرق. أي طريق أسلك؟ و بأي اتجاه أتابع تسكعي و هروبي؟ توقفت عند الكلمة الأخيرة "هروبي" ... مما أهرب؟ هل ارتكبت جريمة أفرُّ منها؟ أم اختلقت مشكلة و شجاراً مع الآخرين أتوارى عنهم؟ نظرت إلى ساعتي لقد مضت حوالي أربع ساعات و أنا أهيم على وجهي في الشوارع، لم أكن متعباً لكنني كنت حزيناً، كنت بائساً.... الآن تذكرت ... تذكرت أنني هدرت كل ذلك الوقت متسكعاً من شارع الى شارع، و من حديقة الى حديقة، و من ذكرى الى ذكرى، كي أهرب من حزني الذي يتغلغل في نفسي، من بؤسي، من وحدتي، و من شيءٍ آخر لا أتذكره الآن، شيء جعلني أقدم على كل ذلك، فقط كيلا أكون وحيداً. من قال: " أنتَ في وحدتكَ عالمٌ مزدحم" ؟ أيُّ أبلهٍ أطلق هذه المقولة؟ هل كان واعياً لمعناها ؟ أم أنه أطلقها جُزافاً و نسيها ليشغلَ الناسَ بمقولةٍ فارغةٍ لا معنى لها، تأكل عقولَهم و تخدعهم، و أنا خدعت نفسي بأنني قادرٌ على الهروب من شيءٍ لا يمكن الهروب منه، لأنه في نفسي ... في عقلي .. في قلبي ، يسري في دمي و يجري في عروقي ، ينسلُّ مع كل نظرة أنظر بها نحو الناس و الأشياء، تنبَّهت إلى طفل مشرَّدٍ يدور حولي ، يكلمني ، عيناه تستجديان عطفي، لم أكن أشعر به، لم أسمع عبارات التسول التي يقولها ، لم أرَ حركاته للفت انتباهي ، و اللف و الدوران حولي لجذب اهتمامي نحوه، و لمنحه قليلاً من المال، يبدو أنه علم بشرودي، بأني أنظر إليه و لا أراه، أسمع كلامه و لا أعيه، لأنني غارق في أفكاري. مددت يدي، أخرجت بعض النقود و أعطيته إياها .. دسَّها في جيبه، و ذهب مسرعاً يبحث عن محسنٍ آخر ، أما أنا فما زلت واقفاً على مفترق الطرق في ساحة "السبع بحرات" محتاراً ... هارباً ... و حزيناً ، حينها رنَّ الموبايل... رنَّ بإلحاح نظرت الى شاشته، تأملت اسم المتصل، إنه هو ... هو سبب تسكعي و حزني و شرودي و ألمي، تأملت الاسم الحبيب – الكريه ، دمعةٌ عصيةٌ انحدرت من عيني و غلَّفت كلَّ شيءٍ بالضباب ، الموبايل يرنُّ، و أنا أكاد أتهاوى في الشارع، هل أردُّ و أقذفُ في أذنه كلَّ ما أصابني من حزنٍ و ألمٍ بسببه؟ أم أتركه يرنُّ الى الأبد؟ كنت أتساءل في نفسي، بينما يدي تبحث عن جدارٍ أستند إليه ، و صوتُ آذان العِشاء من مسجد " بعيرة" القريب يعلو و يطغى على كل شيء من حولي.

اكتمال القمر – ليلة الحجاز

(خلَّفتُ ورائي مدناً تقبعُ في ليلٍ حالكِ السَّوادِ كأنَّه منجمُ فحمٍ ، مدناً يصبحُ فيها ضوءُ فانوسٍ أشدَّ خطورةً من وباءِ الكوليرا في القرونِ الوسطى ، نعم .. قدِمتُ من أوروبا القرنِ العشرين)

حضرتْ في ذهني هذه العبارةُ التي استهلَّ بها الأديبُ الألماني إريش ماريا ريمارك روايته" ليلة لشبونة" و قالها على لسانِ بطلِها شفارتس ، أمَّا أنا فإنني أتجوَّلُ في عاصمةٍ يعمُّها الظلامُ ليس بدرجةِ مدنِ أوروبا خلالَ الحربِ العالميةِ الثانية ، لأنك هنا قد تجدُ بعضَ الأضواءِ المتناثرة التي تضيءُ الشوارعَ و المحلات التجارية، إمَّا مِن مولداتٍ كهربائيةٍ ضجيجُها يصمُّ الآذان ، أو من خلال بطاريات انتشر بيعها خلال سنوات الحرب بشكل سريع كحلٍّ مؤقت لمحاربة الظلام ، الذي يحاول أن يُعيد المدينة إلى العصور الوسطى .

كنت أتجول تضييعاً للوقت لأن الجلوس في المنزل ممل جداً و طريقة الهروب المتاحة هي التسكع فيما تبقى من شوارع آمنة في عاصمةٍ كانت ذات يوم أكثر مدن العالم أمناً ، تمشيت من جسر الرئيس حتى الصالحية ، أطللت على مقهى الهافانا و الكمال ثم الروضة علَّني أجد صديقاً يجلس فيها ، عبثاً .. روادها قلائل ، إضاءتها خافتة ، أكملت مسيري متوجهاً إلى البحصة ثم المرجة و مدخل الحميدية لأتجه غرباً في شارع النصر ، صرت مقابل مقهى الحجاز ، نظرت إليه ، بدا خَرِباً لا زبائن، لا أشجار ، لا مظلات تقي الجالسين قيظ الصيف و مطر الشتاء ، يتسلل إليه الهدم سريعاً ليحل مكانه بناء جديد .

مقهى الحجاز هذا المعلمُ من معالم المدينة ، سيصبح ذكرى بكل ما ضم من ذكريات و أحداث، و بكل ما مرَّ عليه من رجال و نساء جلسوا على طاولاته ، تناولوا قهوتَهُ و شايَهُ ، و قرقروا بنراجيله، و ثرثروا بأحاديثهم ، توقفت قليلاً أتأمل المكان الذي بدا رثّاً مكشوف العورة ، جدرانه متهالكة، بعض الشوادر التي نُصبت في فِنائه الخارجي معلقة من طرف على جذع شجرة يابس ، و مرمية على الأرض من الطرف الآخر ، و هي تعبّر بشكل صارخ و بليغ عن حال المقهى .

حين جئت إلى هذه المدينة في أواسط ثمانينات القرن العشرين الماضي طالباً للدراسة في الجامعة ، كان أول مقهى دخلت إليه هو مقهى الكمال في شارع المتنبي، كان الطقس حينها ماطراً و الغيوم السوداء تغطي صفحة السماء، لكنَّ مقهى الحجاز كان نقطة علَّام يستدلُّ بها المرء من صديقه على مكان لقائهما، يقول:

- نلتقي مساء في مقهى الحجاز ، أو أنا في مكان كذا الواقع غرب مقهى الحجاز أو شرقه أو ... الخ ، فالمقهى و مبنى المحطة من أهم معالم المدينة .

وداعاً يا مقهى الحجاز، وداعاً يا ذكريات هذا المكان، وداعاً لكراسي الخيزران كم استرخى عليها مسافرٌ متعب ، و كم نام عليها مشردٌ ، و كم خسر على طاولاته لاعب ، و الأهم .. وداعاً يا أربعين عاماً من عمري .

أكملت سيري في الظلام متوجّهاً إلى مركز انطلاق السرافيس تحت جسر الرئيس ، لأنتظرَ مع جموع المنتظرين باص النقل الداخلي المتوجّه إلى الضاحية ، لأعودَ إلى بيتي و ظلامِه و عتمتِه ، و دفئه "القارس" و الحزين فهو ملاذي الأخير ، استلقيت في سريري لأغفوَ حالماً بمقهىً جديدٍ ينهض مكان المقهى القديم ، مقهىً عصريٍّ لزبائنَ عصريين ، لن يَستقبل أناساً بسطاءَ و عمالاً و موظفين ، و باعةَ أوراق اليانصيب و ماسحي أحذية ، و مسافرين يستريحون قليلاً قبلَ استكمالِ سفرهم .

سيرة ذاتية

عماد الدين إبراهيم

مواليد صافيتا 1966 - إجازة في الصحافة من جامعة دمشق 1988

- مذيع و معد برامج في الهيئة العامة للإذاعة و التلفزيون منذ عام 1994 من أهم البرامج التي أعددتها و قدمتها : (عالم الرحلات – ألم و إبداع – رسائل لا تنسى – في مكتباتهم – حديث الترجمان –قصة رواية " دراما إذاعية " – مدن و مقاهي " برنامج تلفزيوني") إضافة لكتابة المقالات الثقافية النقدية .

- شغلت عدة مواقع إدارية في الهيئة منها :

– رئيس دائرة التمثيليات في إذاعة دمشق – رئيس دائرة البرامج الثقافية في القناة الأولى في التلفزيون - رئيس دائرة التنسيق الإذاعي لمرتين في إذاعة دمشق – مدير إذاعة دمشق - مدير إدارة الإذاعة – مدير قناة "السورية" الفضائية .

- كاتب نصوص درامية و غنائية محفوظة في المكتبة الإذاعية .

- محاضر في كلية الإعلام بجامعة دمشق .

- عضو في اتحاد الصحفيين السوريين و عضو في اتحاد الكتاب العرب

- صدر لي :

1 - (المتوحد راعي الرياح) مجموعة شعرية صدرت عن دار التكوين بدمشق عام 2004 , قام بترجمتها الى اللغة الفارسية الشاعر الايراني محمد حمَّادي و صدرت عن دار (شُكوهِ حكمتِ رحماني) في مدينة مشهد الايرانية عام 2019

2 - (تداعيات الذاكرة المطرية) – مجموعة قصصية – دمشق – دار التكوين 2018

3 - (تجليات شهرزاد) – مجموعة قصصية - الهيئة العامة السورية للكتاب – 2021 . قام بترجمتها إلى اللغة الفارسية الشاعر الايراني محمد حمادي.

الفهرس

1 – الإهداء

2 – اكتمال القمر – ليلة هوًّا صحيح – ص 3

3 – الأمانة – ص 6

4 – البرقية – ص 10

5 – الوشم – ص 15

6 – بانتظار الغاز – ص 19

7 – تحوُّلات – ص 23

8 – صورة – ص 29

9 – هلوسة – ص 34

10 – القبو – ص 37

11–قيامة – ص 41

12- هروب – ص 43

13 - اكتمال القمر – ليلة الحجاز – ص 45

14 - سيرة ذاتية – ص 47

15 – الفهرس – ص 48